دموع القُرّاء

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م

دموع القُرّاء

تأليف

محمد شومان بن أحمد الرملي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد؛ فإن مما يوجب بكاء القراء أمرين:

الأول: ما يحدثه لهم القرآن من الخشوع والخضوع بسبب معرفة ما فيه من الحق، فإنهم إذا تلوه حق تلاوته أو سمعوه بقلوب مبصرة وآذان واعية، أوجب لهم ذلك رقة القلب ودمع العين.

والثاني ـ وهو أمر منفصل عن التلاوة والسماع ـ: ما جاء عن النبي ﷺ أنه قال:

«أَكْثَرُ مُنَافِقِي أُمَّتِي قُرَّاؤُها»[(١)].

فحق لكل قارىء أن يخشى أن يكون من المنافقين، وأن يحذر أن يُسلك في جماعة الهالكين.

وخوف النفاق أوجب بكاء أهل القلوب الصافية، إذ قد أيقنوا أن

---

(١) حديث صحيح بطرقه، كما في «الصحيحة» برقم (٧٥٠).

مصير أهله العقاب في الآخرة، لا جرم ذرفت عينا القارىء الصحابي الكبير ابن عمر لما حدثه نظيره ابن عمرو؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ سَمَّعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ وَصَغَّرَهُ وَحَقَّرَهُ»(١).

فهذه دموع أهل المعرفة من القراء؛ دمعة مما عرفوا من الحق، وما أوجب لهم ذلك من الخشوع والرقة، كما قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾(٢).

وكما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾(٣).

ودمعة من إشفاقهم على أنفسهم أن يكونوا من منافقي الأمة الذين أكثرهم من القراء، كما تقدم.

ولأمرٍ ما سأل رسول الله ﷺ بريدة لما سمع قراءة أبي موسى الأشعري وأعجبته، فقال: «تَرَاهُ مُرَائِياً؟ . . . أَتَقُولُهُ مُرَاءٍ؟»(٤).

وهٰذا كتاب جمعت فيه ما وقع لي أثناء المطالعة الطويلة الأمد

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٢ و١٩٥ و٢١٢ و٢٢٣) وغيره، وهو في «صحيح الترغيب» (رقم ٢٣).

(٢) المائدة: ٨٣.

(٣) الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩.

(٤) انظر تخريجه (صفحة ٣٦).

من أخبار السلف التي تحكي بكاءهم إذا ما قرؤوا آيات الله أو سمعوها، مما يُرق القلب، ويُدمع العين، ويحث على التشبه بأولئك القوم، والاقتداء بحالهم، والتتبع لآثارهم.

كَرِّرْ عَلَيَّ حديثَهم يا حادي   فحديثُهم يَجْلُو الفؤادَ الصَّادي

وقد بدأته بذكر بكاء الأنبياء وأتباعهم من أهل الإيمان واليقين، ثم ألحقته ببكاء النبي ﷺ من باب التخصيص بعد التعميم، ثم ذكرت بكاء الصحابة رضي الله عنهم، ثم بكاء من بعدهم.

هٰذا ولم أقصد الاستقصاء ولا الاستيعاب فإن هٰذا يطول جداً، وإنما هو جهد المقل، وإني لأعلم حق العلم أنه يكفي في هٰذا المقام أن يُذكر حال النبي ﷺ وما جاء في كتاب الله تعالى مما يتعلق بهٰذا الباب، فإن العاقل بالقليل ينتفع، واللبيب تغنيه الإشارة عن العبارة، لٰكن لا يزال أهل العلم هٰكذا دأبهم: إذا تكلموا في أمر نبهوا عليه من كتاب الله سبحانه وتعالى، ومن هدي رسوله ﷺ، ثم من أقوال الصحابة ومن بعدهم من أهل العلم والإيمان، وأنا إن شاء الله على منوالهم، لا أخالف سبيلهم، ولا أخرج عن طريقتهم.

(تنبيه): البكاء عند تلاوة القرآن وسماعه ليس هو مقصوداً لذاته ولا هو المراد في الأصل، إنما المقصود حضور القلب وتدبره لما يتلو ويسمع، فيحدث له ذٰلك إيماناً ويقيناً، ورغبة ورهبة، ومحبة وشوقاً، توجب له هذه الأمور خضوعاً وخشوعاً، وذلاً وانكساراً، يصاحب ذٰلك رقة وبكاءً.

فهٰذا البكاء يُمْدَح ويُثْنى على صاحبه، لا البكاء المجرد عن السبب الذي ذكرتُ، العاري عن الخشوع الذي وصفتُ، ولا البكاء

المتكلّف أو الذي يراد به وجه الخلق.

ولقد رأيت كثيراً من القراء خاصة من أئمة المساجد يتصنعون البكاء ويتكلفونه إلى الغاية، فتجد الواحد منهم يستجلب البكاء ويستخرجه من رأسه قَسْراً، ضد ما كان عليه السلف رحمهم الله: يكظمونه ويَرُدّونه ما استطاعوا.

ويذكرني هٰذا بمقولة لشيخنا العالم القارىء الخاشع عبد الله عزام، قال رحمه الله: من استطاع أن يكظم بكاءه فلم يكظمه فإنه يُخشى أن يكون مرائياً، أو كلمة نحوها.

ولقد كان والله صاحب دمعة، لٰكن لا يبكي إلا غلبة.

وهٰذا الحال ـ لو تأملت ـ أكثر تأثيراً في نفوس السامعين من البكاء المستمر.

وينبغي للقارىء إذا كان مع الناس أن يخفي بكاءه ما استطاع، وإذا كان وحده فليبك ما شاء، لكن لا يُحَدِّث به بعد.

ولقد رأيت من الأئمة من يتجهز للبكاء قبل الصلاة!

ورأيت من يُقَدِّم الإمام إلى الصلاة، ويقول له: ابكِ يا شيخ!

ورأيت من يبكي أثناء الفاتحة في الركعة الأولى؟! بل إن بعضهم لتخرج منه تكبيرة الإحرام مخنوقة من البكاء!

ما هٰكذا كان السلف! كانوا يبكون في مواضع البكاء، ويبكون غلبة لا تصنعاً، ويبكون لِما تحدثه الآيات في قلوبهم من الخشوع والرقة، لا يبكون رياء وسمعة.

ولقد رأيت من لا تكاد تفهم قراءته لكثرة بكائه.

والله لو كان هذا غلبة لعذرناه إذا أحسن قراءة الفاتحة، لكن هو التكلف!

إنه ليبكي إذا قرأ آيات الوعيد، ويبكي إذا قرأ آيات الرجاء، ويبكي إذا قرأ آيات الطلاق! ويبكي إذا قرأ آيات الميراث!

وآسف لو قلت: إن هٰذا يذكرني بحكاية هي كالطرفة، رأيتها في «أخبار الحمقى» لابن الجوزي، قال رحمه الله:

عن أبي عثمان الجاحظ قال: أخبرني يحيى بن جعفر قال: كان لي جار من أهل فارس، وكان طوال الليل يبكي، فأنبهني ذات ليلة بكاؤه ونحيبه وهو يشهق ويضرب على رأسه وصدره، ويُرَدِّد آية من كتاب الله تعالى، فلما رأيت ما نزل به قلت: لأسمعن هذه الآية التي قتلت هذا وأذهبت نومي، فتسمعت عليه، فإذا الآية: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾. اهـ.

قلت: على أي شيء يبكي؟! أيبكي أنْ منعه الحيضُ زوجَه؟!

أستغفر الله.

ولقد سمعت أحد المصلين وهو خارج من أحد المساجد وقد صلى خلف بعض هؤلاء، فقال: والله لن آتي هٰذا المسجد بعد اليوم، وأخذ يذم الإمام.

انظر؛ الإمام يرائي الناس ويتصنع لهم والناس غضاب عليه! إنها القلوب يحركها الله تعالى.

وصليت مرة خلف بعضهم فناح طوال الصلاة، وبعض من خلفه يبكون ويتكلمون بالدعاء والنياحة والتأوهات في الصلاة وأثناء القراءة!!! ويخرجون المناديل من جيوبهم ويمسحون وجوههم

ويتحركون هٰكذا وهٰكذا.

وسألت بعض المقربين من أحد أئمة المساجد المشهورين بالبكاء؛ كيف حال فلان خارج الصلاة؟ فقال: مسخرة! نكتة! لا يفتر عن المزاح والضحك.

قلت: هٰذا ما يسمى بانفصام الشخصية.

ويذكرني هٰذا بإمام من أئمة الموسوسين، مر به عهد كان لا يكاد يدرك فيه الجماعة إلا نادراً ـ هذا وهو حاضر في المسجد جاهز للصلاة من قبل أن تقام ـ.

أقول: ثم يكتب مقالاً يهدي به الناس بعنوان: «الخشوع في الصلاة»! فكيف يستقيم أمر هؤلاء، إن مشى الحال عند الناس ـ ولا إخاله ـ فهل يمشي عند الله عز وجل؟! هل يمشي عند نفسك يا هٰذا؟!

وما أحسن ما وعظ به الصحابي الجليل القارىء الكبير عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه بقوله: ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخلطون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكياً محزوناً حليماً حكيماً عليماً سِكِّيتاً، وينبغي لحامل القرآن أن لا يكون جافياً ولا غافلاً ولا صخاباً ولا صياحاً ولا حديداً [(١)].

وعن أبي حازم الخاقاني قال: حدثني أبو بكر الحسن بن عبد الوهاب الوراق قال: ما رأيت أبي ضاحكاً قط إلا تبسماً، قال:

---

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٧/ ٢٣١/ رقم ٣٥٥٧٣)، و«الحلية» (١/ ١٣٠).

وما رأيته مازحاً قط، ولقد رآني مرة وأنا أضحك مع أمي، فجعل يقول لي: صاحب قرآن يضحك هذا الضحك!؟ وإنما كنت مع أمي[1].

ولا أريد أخي القارىء أن أستطرد أكثر في هذا الموضوع، فهاك من حكايات السلف وأحوالهم عند القراءة، ما يبين لك كيف كان بكاؤهم، وكيف كان خشوعهم وتأثرهم بكلام الله تعالى.

ولا بد قبل ذلك من تقديم فصول مهمة تتعلق بعظمة القرآن وضرورة تدبره، إذ أن سبب حصول الخشوع والخشية في تلاوته إنما يكون بتدبر آياته وتفهمها، ويُقَوِّي هذا ويثيره معرفة شأن القرآن وعظمته، وأنه كلام الله جل ثناؤه.

لذا جاء هٰذا الكتاب مرتباً كما يلي:

الباب الأول: وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: في عظمة القرآن وسعة صفاته.

الفصل الثاني: في الحث على تدبره وبيان أنه مفتاح كل خير.

الفصل الثالث: في الثناء على الباكين عند التلاوة والسماع للقرآن، وبيان فضل البكاء من خشية الله تعالى.

الفصل الرابع: في خوف السلف من النفاق.

الباب الثاني: وفيه أربعة فصول أيضاً:

الفصل الأول: في بكاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وبكاء أتباعهم من أهل العلم والإيقان.

---

(١) «تاريخ بغداد» (١١ / ٢٦ ـ ٢٧).

الفصل الثاني: في بكاء النبي ﷺ.

الفصل الثالث: في بكاء الصحابة رضي الله عنهم.

الفصل الرابع: في بكاء التابعين ومن بعدهم.

والمقصود البكاء عند تلاوة آيات الرحمن أو سماعها.

ولا يفوتني أن أنبه إلى أنني ذكرت في هذا الكتاب تفسير كل آية ذُكِر البكاء عندها، إتماماً للفائدة، وتعجيلاً للمنفعة، ولِيتدبر القارىء المعاني في الحال.

والله أسأل أن يجعل عملي خالصاً لوجهه عز وجل، وأن ينفع به كل من نظر فيه، وبخاصة القراء من أئمة المساجد وغيرهم.

وأسأله عز وجل أن يعيننا ـ في هذا الباب وفي غيره ـ على الاقتداء بهدي رسول الله ﷺ، والاتباع لأصحابه رضي الله عنهم، والانتفاع بما كان عليه السلف رحمهم الله تعالى، فعسى أن يكون هذا الكتاب سبباً في ذلك ومفتاحاً له، بإذن الله عز وجل.

وكتب

محمد شومان

١٤٢١هـ

* * * * *

الباب الأول

الفصل الأول : في عظمة القرآن وسعة أوصافه .

الفصل الثاني : في الحث على تدبره وأنه مفتاح كل خير .

الفصل الثالث : في الثناء على الباكين عند تلاوة القرآن وسماعه ، وبيان فضل البكاء من خشية الله تعالى .

الفصل الرابع : في خوف السلف من النفاق .

الفصل الأول
في عظمة القرآن وعلو صفاته

القرآن الكريم كلام الله تعالى منه خرج، هٰذه عقيدتنا، فهو أعظم الكلام وأشرفه على الإطلاق، وقد قال الله سبحانه وتعالى في وصفه، وذلك بعد قسم عظيم:

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

قوله تعالى: **﴿إنه لقرآن كريم﴾**، قال ابن سعدي: أي كثير الخير غزير العلم، وكل خير وعلم فإنما يستفاد من كتاب الله ويستنبط منه.

قلت: والكرم أيضاً في صفة القرآن: الشرف والعزة، فهو كريم بمعنى شريف، وكريم بمعنى عزيز، وكريم بمعنى كثير المنافع جم الفوائد، لا يزال يعطي الناس من خيره أبداً دون انقطاع.

وقوله تعالى: **﴿تنزيل من رب العالمين﴾**؛ قال ابن كثير: أي هٰذا القرآن منزل من الله رب العالمين، وليس هو كما يقولون: إنه سحر أو كهانة أو شعر. بل هو الحق الذي لا مرية فيه، وليس وراءه حق نافع. اهـ.

---

(١) الواقعة: ٧٧ ـ ٨٠.

ووصفه سبحانه بالعلو والحكمة، فقال:

﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(١).

قال ابن كثير: قوله تعالى: ﴿**وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم**﴾، بيّن شرفه في الملأ الأعلى ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، فقال تعالى: ﴿**وإنه**﴾؛ أي: القرآن ﴿**في أم الكتاب**﴾؛ أي: اللوح المحفوظ. قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد. ﴿**لدينا**﴾؛ أي: عندنا. قاله قتادة وغيره. ﴿**لعلي**﴾؛ أي: ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل. قاله قتادة. ﴿**حكيم**﴾؛ أي: محكم بريء من اللبس والزيغ، وهٰذا كله تنبيه على شرفه وفضله.

قلت: قوله تعالى: ﴿**حكيم**﴾؛ الظاهر هنا ـ والله أعلم ـ أنه من الحكمة؛ أي: حكيم فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان. كما قال ابن سعدي.

ووصفه بالعظمة، فقال سبحانه:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾(٢).

و﴿**العظيم**﴾: الذي له كل صفة كمال، فما من صفة كمال تكون لكلام إلا اتصف كلام الله تعالى بأعلاها وأشرفها، وهو العظيم الذي يدين له الخلق بالتعظيم والإجلال ما لا يدينونه لكلام سواه.

قال ابن سعدي: وإذا كان الله قد أعطاه القرآن العظيم مع

---

(١) الزخرف: ٤.

(٢) الحجر: ٨٧.

السبع المثاني كان قد أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المتنافسون وأعظم ما فرح به المؤمنون، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[1].

ولذلك قال بعده: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾؛ أي: لا تعجب إعجاباً يحملك على إشغال فكرك بشهوات الدنيا التي تمتع بها المترفون، واغتر بها الجاهلون، واستغن بما آتاك الله من المثاني والقرآن العظيم. اهـ.

ووصفه سبحانه بالمجد؛ وهو سعة الصفات وعظمتها، فقال عز وجل:

﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾.

قال ابن سعدي: يقسم تعالى بالقرآن المجيد؛ أي: وسيع المعاني عظيمها كثير الوجوه كثير البركات جزيل المبرات، والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وأحق كلام يوصف بذلك هٰذا القرآن الذي قد احتوى على علوم الأولين والآخرين، الذي حوى من الفصاحة أكملها، ومن الألفاظ أجزلها، ومن المعاني أعمها وأحسنها، وهٰذا موجب لكمال اتباعه وسرعة الانقياد له وشكر الله على المنة به.

ووصفه سبحانه بقوله:

﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾.

قوله تعالى: ﴿**ذي الذكر**﴾؛ أي: ذي الشرف والمنزلة والمكانة التي لا تدرك، و ﴿**ذي الذكر**﴾؛ أي: ذي التذكير للعباد بما ينفعهم في

---

(١) يونس: ٥٨.

معاشهم ومعادهم، وأيضاً ﴿ذي الذكر﴾؛ أي: ذي الذكر للعباد، فمن اتبعه واهتدى به نال الذكر والشرف والصيت، كما قال سبحانه:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].

ووصفه سبحانه بالإحكام والتشابه والبركة والهداية، وسماه نوراً وروحاً، في أسماء وصفات كثيرة، قد ذكرت جملتها في كتابي «تدبر القرآن الكريم»، فلا أكررها هنا، فمن أحب فليرجع إليه.

(تنبيه): إنما ذكرت هٰذا الفصل هنا لأن من عرف عظمة القرآن وعلو شأنه وجلالة قدره أوجب له ذلك تعظيمه والمسارعة إلى تدبره، تنافساً في نيل خيراته وتحصيل بركاته، فيوجب له ذلك الخشوع والخضوع، فيرق القلب وتدمع العين ـ وهو موضوعنا الذي نبحث فيه ـ، كما قال الله سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾[2].

وسيأتي بيان كيف أن هذا القرآن يوجب لأهل العلم والتدبر خشية القلب وفيض العين، وإنما خلا مَنْ خلا من ذلك لاشتغاله عن تدبر القرآن بشهوات الدنيا وزينتها الفانية.

وما أجمل أن يعاتب كل مؤمن نفسه بقوله تعالى:

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا

---

(١) الأنبياء: ١٠.

(٢) الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩.

يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[1].

وليس الوصول إلى هٰذا المقام بالأمر الصعب أو الشاق إذا أعان الله عز وجل، فقد قال سبحانه بعد قوله المتقدم:

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

فالذي يحيي الأرض الميتة بالقطر هو سبحانه قادر على أن يحيي القلوب بالقرآن والذكر. كما نبه إلى نحوه بعض العلماء.

* * * * *

(١) الحديد: ١٦. وانظر تفسير الآية (صفحة ٧١ - ٧٢).

الفصل الثاني
في الحث على تدبر القرآن الكريم
وأنه مفتاح كل خير

قال الله تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه ناهياً عن الإعراض عنه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[1].

قال ابن جرير[2]: يقول تعالى ذكره: أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التي يعظهم بها في آي القرآن الذي أنزله على نبيه عليه الصلاة والسلام، ويتفكرون في حججه التي بينها لهم في تنزيله، فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون. **﴿أم على قلوب أقفالها﴾**؛ يقول: أم أقفل الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعبر.

قال القاسمي[3]: **﴿أم على قلوب أقفالها﴾**؛ أي: فلا يصل إليها ذكر ولا ينكشف لها أمر.

قال: وتنكير «القلوب» للإشعار بفرط جهالتها ونُكرها، كأنها

---

(١) محمد: ٢٤

(٢) «تفسيره» (١١/ ٣٢١).

(٣) «محاسن التأويل» (١٥/ ٥٥).

مبهمة منكورة.

وروى ابن جرير وغيره عن قتادة: قوله: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾؛ إذاً والله يجدون في القرآن زاجراً عن معصية الله لو تدبره القوم فعقلوه، ولكنهم أخذوا بالمتشابه فهلكوا عند ذلك.

وعن خالد بن مَعدان قال: ما من آدمي إلا وله أربع أعين: عينان في رأسه لدنياه وما يصلحه من معيشته، وعينان في قلبه لدينه وما وعد الله من الغيب، فإذا أراد الله بعبد خيراً أبصرت عيناه اللتان في قلبه، وإذا أراد الله به غير ذلك طمس عليهما، فذلك قوله: ﴿**أم على قلوب أقفالها**﴾.

وقال سبحانه وتعالى مبيناً أن الغاية من إنزال القرآن هو التدبر له والتذكر؛ فقال سبحانه:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١).

قلت: فما أعظم ما يحصله العبد بتدبره لكتاب الله تعالى من العلوم الجالبة لخيرات الدنيا والآخرة، فإنه كما قال سبحانه: ﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك**﴾، فلا ينضب خيره، ولا تنفد فوائده، ولا تنتهي بركته، فلا يزال العبد في انتفاع ونماء وزيادة في العلم والخير ما دام يتدبره، وكيف لا وهو كلام الله تبارك اسمه.

قال النووي(٢): ينبغي للقارىء أن يكون شأنه الخشوع والتدبر والخضوع، وهٰذا هو المقصود المطلوب، وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب، ودلائله أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر.

---

(١) صَ: ٢٩.

(٢) «الأذكار» (ص ٩٠)، وانظر: «التبيان في آداب حملة القرآن» (ص ٤٣ ـ ٤٤).

وقال ابن القيم[1]: ليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع فيه الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرها، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتَتُلّ[2] في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتُثَبِّتُ قواعد الإيمان في قلبه، وتشيّد بنيانه، وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتُحْضِره بين الأمم وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق، واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وقال[3]: لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر؛ فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن

---

(١) «مدارج السالكين» (١ / ٤٥١ ـ ٤٥٢).

(٢) أي: تضع.

(٣) «مفتاح دار السعادة» (١ / ١٨٧).

بالتدبر؛ لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مئة مرة، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن، فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب. اهـ.

فصل

في ترديد الآية الواحدة في الصلاة طلباً للتدبر

عن جَسْرة بنت دجاجة قالت: سمعت أبا ذر يقول: قام النبي ﷺ بآية حتى أصبح يرددها، والآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١)(٢).

قلت: وقد ذكر شيخنا هٰذا الحديث بزيادات كثيرة(٣)، فقال في «صفة الصلاة»:

«قام ليلة بآية يرددها حتى أصبح وهي: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، [بها يركع، وبها يسجد، وبها يدعو]، [فلما أصبح قال له أبو ذر رضي الله عنه: يا رسول الله، ما زلت تقرأ هٰذه الآية حتى أصبحت، تركع بها، وتسجد بها]، [وتدعو

---

(١) المائدة: ١١٨.

(٢) أخرجه النسائي (٢ / ١٧٧)، وابن ماجه (١٣٥٠)، وابن خزيمة (١ / ٢٧٠)، وغيرهم، وبوب له ابن خزيمة بقوله: «باب إباحة ترديد الآية الواحدة في الصلاة مراراً عند التدبر والتفكر في القرآن...». وحسنه شيخنا رحمه الله.

(٣) وهو مما تخصص به شيخنا وعُرِف به، وما هو بالأمر الهين، ثم يأتي بعض الكتاب ـ وما أكثر البلية بهم ـ فيذكر الحديث ويدعي أنه هو الذي أسهر ليله بجمع شمله! لا جمع الله شمل من يسرق جهد غيره، ثم يدعيه لنفسه.

بها]، [وقد علمك الله القرآن كله]، [ولو فعل هٰذا بعضنا لوجدنا عليه!] [قال: «إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ الشَّفَاعَةَ لأُمَّتِي فَأَعْطَانِيهَا، وَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لِمَنْ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً]».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُرَدِّدُها، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذٰلك له، وكأن الرجل يَتَقالُّها، فقال رسول الله ﷺ:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّها لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ»[(١)].

قلت: وفي باب ترديد الآية في الصلاة مراراً أخبار كثيرة عن السلف، ذكرت جملة منها في كتابي «تدبر القرآن الكريم»[(٢)].

ومنها ما في «الحلية»[(٣)]: حدثنا إسحٰق، ثنا إبراهيم، ثنا أحمد قال: سمعت أبا سليمان يقول: ربما أقمت في الآية الواحدة خمس ليالٍ، ولولا أني بعد أدع الفكر فيها ما جُزْتُها أبداً، وربما جاءت الآية من القرآن تُطَيِّر العقل، فسبحان الذي رَدّه إليهم بعد!

وعن أبي علي البصري، عن معمر مؤذن التيمي قال: صلى إلى جنبي سليمان التيمي العشاء الآخرة، وسمعته يقرأ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، قال: فلما أتى على هذه الآية: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، جعل يرددها حتى خَفّ أهل المسجد وانصرفوا. قال: فخرجت وتركته. قال: وعدت لأذان الفجر فإذا هو في مقامه.

---

(١) أخرجه البخاري (٩ / ٥٩ ـ فتح)، وفي مواضع أخر.

(٢) وسيأتي بعض ذلك أثناء الكتاب، انظر على سبيل المثال ما جاء عن عائشة رضي الله عنها (صفحة ٦١).

(٣) (٩ / ٢٦٢).

قال: فتسمعت فإذا هو لم يجزها، وهو يقول: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[1].

وعن صفوان بن سُلَيم قال: قام تميم الداري في المسجد بعد أن صلى العشاء، فمرّ بهذه الآية: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ﴾[2]، فما خرج منها حتى سمع أذان الصبح[3].

* * * * *

(١) «صفة الصفوة» (٣/ ٢٩٨).

(٢) المؤمنون: ١٠٤.

(٣) «صفة الصفوة» (١/ ٧٣٩).

الفصل الثالث
في الثناء على الباكين عند تلاوة القرآن
وبيان فضل البكاء من خشية الله تعالى

قال الله سبحانه مثنياً على أشرف خلقه:

﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴾[1].

قال ابن سعدي[2]: ﴿خروا سجداً وبكياً﴾؛ أي: خضعوا لآيات الله وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة ما أوجب لهم البكاء والإنابة والسجود لربهم.

وقال سبحانه في صالحي أهل الكتاب:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾[3].

قال ابن جرير[4]: يقول تعالى ذكره: ويخر الذين أوتوا العلم من

---

(١) مريم: ٥٨.
(٢) «تفسيره» (٣/ ٢٠٩).
(٣) الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩.
(٤) «تفسيره» (٨/ ١٦٥).

مؤمني أهل الكتابين من قبل نزول الفرقان، إذا يُتْلى عليهم القرآن لأذقانهم يبكون، ويزيدهم ما في القرآن من المواعظ والعبر خشوعاً؛ يعني: خضوعاً لأمر الله وطاعته واستكانة له.

قال ابن سعدي[1]: وهؤلاء كالذين مَنَّ الله عليهم من مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره ممن أسلم في وقت النبي ﷺ بعد ذلك.

ويروى عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إذا قرأتم سجدة ﴿سُبْحَانَ﴾ فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم، فليبك قلبه[2].

وروى ابن جرير وغيره[3] عن عبد الأعلى التيمي: إن من أوتي من العلم ما لم يبكه لخليق أن لا يكون أوتي علماً ينفعه، لأن الله نَعت العلماء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ الآيتين.

(فائدة): قوله تعالى: **﴿ويخرون للأذقان يبكون﴾**؛ قال الآلوسي[4]: أي باكين من خشية الله تعالى، ولما كان البكاء ناشئاً من الخشية الناشئة من التفكر الذي يتجدد جيء بالجملة الفعلية المفيدة للتجدد.

(تنبيه) ذكره القاسمي في «محاسن التأويل»[5]؛ قال: دلّ نعت

---

(١) «تفسيره» (٣/ ١٣٦).
(٢) انظر: «محاسن التأويل» (١٠/ ٣١٠).
(٣) انظر: «جامع البيان» (٨/ ١٦٥)، و«الدر المنثور» (٥/ ٣٤٧).
(٤) «تفسيره» (١٥/ ١٩٠).
(٥) (١٠/ ٣١٠).

هؤلاء ومدحهم بخرورهم باكين على استحباب البكاء والتخشع، فإن كل ما حمد فيه من النعوت والصفات التي وصف الله تعالى بها مَن أحبه مِن عباده يلزم الاتصاف بها، كما أن ما ذمّ منها مَن مَقَتَه منهم يجب اجتنابه.

وقال جل ثناؤه منكراً على المشركين تعجبهم من القرآن وضحكهم وعدم بكائهم:

﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴾(١).

قال ابن سعدي: ﴿**وتضحكون ولا تبكون**﴾؛ أي: تستعجلون الضحك والاستهزاء به، مع أنه الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون، سماعاً لأمره ونهيه، وإصغاءً لوعده ووعيده، والتفاتاً لأخباره الصادقة الحسنة. ﴿**وأنتم سامدون**﴾؛ أي: غافلون لاهون عنه وعن تدبره، وهذا من قلة عقولكم وزيف أديانكم.

فصل

قال شيخ الإسلام(٢): وما يحصل عند الذكر المشروع من البكاء ووجل القلب واقشعرار الجسوم فمن أفضل الأحوال التي جاء بها الكتاب، أما الاضطراب الشديد والغشي والصيحان؛ فإن كان صاحبه لم يعلم ما هو عليه لم يُلَمْ، وسببه قوة الوارد مع ضعف القلب، والقوة والتمكن أفضل، كما هو حال النبي ﷺ وأصحابه، وأما السكون قسوة

---

(١) النجم: ٥٩ ـ ٦١.

(٢) «مختصر الفتاوى المصرية» (ص ١٠٠) بتصرف يسير.

وجفاء فهذا مذموم. اهـ.

وعن الفضل بن عيسى الرقاشي قال: ما تلذذ العابدون ولا استطارت قلوبهم بشيء كحسن الصوت بالقرآن، وكل قلب لا يجيب على حسن الصوت بالقرآن فهو قلب ميت.

قال الفضل: وأي عين لا تهمل على حسن الصوت إلا عين غافل أو لاهٍ[1].

وعن الحسن قال: لم يزل الناس على ذلك؛ يبكون عند الذكر وقراءة القرآن[2].

وعن عبد الله بن عبيدة؛ أن نفراً اجتمعوا في حجرة صفية بنت حُيَي زوج النبي ﷺ، فذكروا الله وتلوا القرآن وسجدوا، فنادتهم صفية: هذا السجود وتلاوة القرآن، فأين البكاء؟![3].

وعن صالح المُرّي قال: قرأت القرآن على رسول الله في المنام فقال لي: يا صالح، هذه القراءة، فأين البكاء؟!

قلت: ذكرتها للمؤانسة.

وعن الحسن البصري قال: قُرّاء القرآن ثلاثة: رجل اتخذه بضاعة ينقله من مصر إلى مصر يطلب به ما عند الناس. وقوم قرؤوا القرآن؛ حفظوا حروفه، وضيعوا حدوده، واستجرّوا به الولاة واستطالوا به على أهل بلادهم، فقد كثر هذا الضرب في حملة القرآن،

(١) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ٨٠)، و «حلية الأولياء» (٦ / ٢٠٧)، وفيه: «وكل قلب لا يجب»، يعني: يَخْفق.
(٢) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ١٠١).
(٣) «حلية الأولياء» (٢ / ٥٥).

لا كَثَّرهم اللهُ. ورجل قرأ القرآن، فبدأ بما يعلم من دواء القرآن، فوضعه على داء قلبه، فأسهر ليله وهملت عيناه[1].

(فائدة): قال الغزالي: البكاء مستحب مع القراءة، وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه أسباب البكاء، ووجه ذٰلك أن يتأمل ما في القرآن من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره، فيحزن لا محالة ويبكي، فإن لم يحضره حزن ولا بكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية، فليبك على فقد الحزن والبكاء، فإن ذلك من أعظم المصائب.

فصل

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لاَ يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ، وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ»[3].

---

(١) «الرقة والبكاء» لابن قدامة (ص ٥٥).

(٢) أخرجه الترمذي (١٦٣٩) وغيره، وصححه شيخنا بشواهده في «تخريج المشكاة» (٣٨٢٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣١١)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٦ / ١٢)، والحاكم (٤ / ٢٦٠)، وصححه، ووافقه الذهبي، وأخرجه غيرهم، وصححه شيخنا في «تخريج المشكاة» برقم (٣٨٢٨).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ قَطْرَتَيْنِ وَأَثَرَيْنِ: قَطْرَةٌ مِنْ دُمُوعٍ فِي خَشْيَةِ اللَّهِ، وَقَطْرَةُ دَمٍ تُهْرَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَمَّا الأَثَرَانِ: فَأَثَرٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَثَرٌ فِي فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ»(١).

وفي «الصحيحين»(٢) وغيرهما: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ».

وروى خالد بن مَعْدَان، عن كعب الأحبار قال: لأن أبكي من خشية الله أحب إلي من أن أتصدق بوزني ذهباً(٣).

وقال بعض السلف: ابكوا من خشية الله، فإن لم تبكوا فتباكوا(٤).

(فائدة): قال ابن القيم(٥): التباكي نوعان؛ محمود ومذموم: فالمحمود؛ أن يُستجلب لرقة القلب ولخشية الله، لا للرياء والسمعة،

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٦٩) وغيره، وحسنه شيخنا في «تخريج المشكاة» (٣٨٣٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٢ / ١٤٣ ـ فتح) وفي مواضع أخر، و «صحيح مسلم» (رقم ١٠٣١).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٩٠ ـ ٤٩١).

(٤) «زاد المعاد» (١ / ١٨٥ ـ ١٨٦).

(٥) «زاد المعاد» (١ / ١٨٥).

والمذموم؛ أن يُجتلب لأجل الخلق.

وعن أبي إسحٰق الفَزَاري، عن سفيان قال: البكاء عشرة أجزاء: جزء لله وتسعة لغير الله، فإذا جاء الذي لله في العام مرة فهو كثير(١).

* * * * *

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٥٨).

الفصل الرابع
في خوف السلف من النفاق

وإنما عقدت هٰذا الفصل وجعلته هنا في هٰذا الكتاب لمناسبة أن القراء أكثر الناس عرضة للنفاق، وأقرب أهل الإسلام إلى الوقوع فيه، كما نبهت عليه في «المقدمة» من قول النبي ﷺ:

«أَكْثَرُ مُنَافِقِي أُمَّتِي قُرَّاؤُهَا».

وأشرت هناك إلى ما رواه ابن بريدة عن أبيه قال: خرج بريدة عشاء فلقيه النبي ﷺ، فأخذ بيده فأدخله المسجد، فإذا صوت رجل يقرأ، فقال النبي ﷺ:

«تُرَاهُ مُرَائِياً؟». فأُسكت بريدة... الحديث. وفيه:

قال: فلما كان في القابلة خرج بريدة عشاء، فلقيه النبي ﷺ، فأخذ بيده فأدخله المسجد، فإذا صوت الرجل يقرأ، فقال النبي ﷺ:

«أَتَقُولُهُ مُرَاءٍ؟». فقال بريدة: أتقوله مراء يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ:

«لاَ بَلْ مُؤْمِنٌ مُنِيبٌ، لاَ بَلْ مُؤْمِنٌ مُنِيبٌ».

فإذا الأشعري يقرأ بصوت له في جانب المسجد...

الحديث[1].

وذكر الإمام البخاري في «صحيحه» في «باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر» قول ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه . . .

قال الحافظ: والصحابة الذين أدركهم ابن أبي مليكة: من أجلهم عائشة وأختها أسماء وأم سلمة والعبادلة الأربعة وأبو هريرة وعقبة بن الحارث والمسور بن مخرمة، فهؤلاء ممن سمع منهم، وقد أدرك بالسن جماعة أجل من هؤلاء؛ كعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص، وقد جزم بأنهم كانوا يخافون النفاق في الأعمال، ولم ينقل عن غيرهم خلاف ذلك، فكأنه إجماع، وذلك لأن المؤمن قد يعرض عليه في عمله ما يشوبه مما يخالف الإخلاص، ولا يلزم من خوفهم ذلك وقوعه منهم، بل ذلك على سبيل المبالغة منهم في الورع والتقوى رضي الله عنهم، وقال ابن بطال: إنما خافوا لأنهم طالت أعمارهم حتى رأوا من التغير ما لم يعهدوه ولم يقدروا على إنكاره، فخافوا أن يكونوا داهنوا بالسكوت. اهـ.

وذكر ـ أعني البخاري ـ قول إبراهيم التيمي: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مُكَذِّباً.

قال الحافظ: قوله: (مُكذباً) يروى بفتح الذال؛ يعني خشيت أن يكذبني من رأى عملي مخالفاً لقولي، فيقول: لو كنتَ صادقاً ما فعلتَ خلاف ما تقول. وإنما قال ذلك لأنه كان يعظ الناس. ويروى بكسر

---

(١) أخرجه بهذا السياق أحمد في «المسند» (٥ / ٣٤٩)، وصححه شيخنا الألباني عليه رحمة الله.

الذال وهي رواية الأكثر، ومعناه: أنه مع وعظه الناس لم يبلغ غاية العمل، وقد ذم الله من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وقَصّر في العمل، فقال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[1]، فخَشِي أن يكون مكذباً؛ أي: مشابهاً للمكذبين.

وقال الحافظ: قال جعفر الفريابي: حدثنا قتيبة، حدثنا جعفر بن سليمان، عن المعلى بن زياد، سمعت الحسن يحلف في هٰذا المسجد بالله الذي لا إله إلا هو؛ ما مضى مؤمن ولا بقي إلا وهو من النفاق مشفق، ولا مضى منافق قط ولا بقي إلا وهو من النفاق آمن. وكان يقول: من لم يخف النفاق فهو منافق[2].

وقال أحمد بن حنبل في «كتاب الإيمان»: حدثنا روح بن عبادة، حدثنا هشام، سمعت الحسن يقول: والله ما مضى مؤمن ولا بقي إلا وهو يخاف النفاق، وما أمنه إلا منافق. انتهى كلام الفريابي نقلاً عن «الفتح».

فصل

وروى الذهبي في «السير»[3] بإسناده ـ وصححه ـ: عن جُبَيْر بن نُفَيْر؛ أنه سمع أبا الدرداء وهو في آخر صلاته وقد فرغ من التشهد يتعوذ بالله من النفاق، فأكثر التعوذ منه، فقال جُبَير: وما لك يا أبا الدرداء أنت والنفاق؟! فقال: دعنا عنك، دعنا عنك، فوالله إن الرجل ليقلب عن دينه في الساعة الواحدة فيخلع منه. اهـ.

---

(١) الصف: ٣.

(٢) وصحح الحافظ هٰذا عن الحسن. انظر: «الفتح» (١ / ١١١).

(٣) (٦ / ٣٨٢).

وعن الأعمش قال: كنت عند إبراهيم وهو يقرأ في المصحف، فاستأذن عليه رجل فغطى المصحف وقال: لا يراني هٰذا أني أقرأ فيه كل ساعة[1].

وعن محمد بن واسع قال: لقد أدركت رجالاً كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة قد بلّ ما تحت خده من دموعه لا تشعر به امرأته، ولقد أدركت رجالاً يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خده ولا يشعر به الذي إلى جانبه[2].

وعنه قال: إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم به[3].

وعن حماد بن زيد قال: كان أيوب في مجلس فجاءته عَبرة، فجعل يمتخط ويقول: ما أشد الزكام[4].

وعن سفيان قال: يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم، لا تزيدوا التخشع على ما في القلب، فقد وضح الطريق، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا تكونوا عيالاً على المسلمين[5].

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: يا معشر القراء، اسلكوا الطريق، فلئن سلكتموه لقد سبقتم سبقاً بعيداً، ولئن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً[6].

---

(١) «الحلية» (٤ / ٢٢٠).

(٢) «الحلية» (٢ / ٣٤٧).

(٣) «الحلية» (٢ / ٣٤٧).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٦ / ٢٠).

(٥) «الحلية» (٦ / ٣٨٢).

(٦) «حلية الأولياء» (١ / ٢٨٠)، وذكره شيخ الإسلام في بعض كتبه بلفظ: يا معشر القراء، =

وعن حماد بن زيد قال: دخلنا على محمد بن واسع في مرضه نعوده، قال: فجاء يحيى البكاء يستأذن عليه، فقالوا: يا أبا عبد الله، هٰذا أخوك أبو سلمة على الباب. قال: من أبو سلمة؟ قالوا: يحيى. قال: من يحيى؟ قالوا: يحيى البكاء ـ قال حماد: وقد علم أنه يحيى البكاء ـ فقال: إن شر أيامكم يوم نسبتم فيه إلى البكاء[١].

وعن ابن شوذب قال: حضر محمد بن واسع محضراً فيه بكاء، فلما فرغوا أتوا بالطعام، فتنحى محمد بن واسع ناحية فجلس، فقالوا له: يا أبا بكر ألا تدنوا إلى الطعام فتأكل؟ قال: إنما يأكل من بكى. كأنه يعيب عليهم الطعام بعد البكاء أو مع البكاء[٢].

وعن مالك بن دينار قال: إن الشيطان ليلعب بالقراء كما يلعب الصبيان بالجوز[٣].

قلت: يعني القراء الذين يريدون الدنيا ويراؤون الناس بقراءتهم.

* * * * *

= استقيموا وخذوا بطريق مَنْ قبلكم، فوالله لئن استقمتم لقد سبقتم سبقاً بعيداً، ولئن أخذتم يميناً أو شمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً.

(١) «الحلية» (٢ / ٣٤٧).

(٢) «الحلية» (٢ / ٣٤٧).

(٣) «الحلية» (٢ / ٣٧٥).

الباب الثاني

الفصل الأول: في بكاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وبكاء أتباعهم من أهل العلم واليقين.

الفصل الثاني: في بكاء النبي ﷺ.

الفصل الثالث: في بكاء الصحابة رضي الله عنهم.

الفصل الرابع: في بكاء التابعين ومَن بعدهم رحمهم الله.

الفصل الأول

في بكاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم من أهل العلم واليقين

قال الله تعالى بعد أن ذكر نبأ جماعة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾[1].

قال ابن جرير: قوله تعالى ذكره: **﴿إذا تتلى عليهم آيات الرحمن﴾**؛ يقول: إذا تتلى على هؤلاء الذين أنعم الله عليهم من النبيين[2] أدلة الله وحججه التي أنزلها عليهم في كتبه خَرُّوا لله سجداً؛ استكانة له وتذللاً، وخضوعاً لأمره وانقياداً. **﴿وبكياً﴾**؛ يقول: خَرُّوا سجداً وهم باكون، والبُكِيّ: جمع باكٍ، وقد يجوز أن يكون البكي هو

---

(١) مريم: ٥٨.

(٢) قال ابن كثير في «تفسيره»: ليس المراد المذكورين في هٰذه السورة فقط من جنس الأنبياء عليهم السلام، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس.
قلت: فعلى هذا فإن سيد الأنبياء ﷺ يدخل ضمن هٰذه الآية، فيكون ترتيبي لفصل «بكاء النبي» بعد فصل «بكاء الأنبياء» من باب التخصيص بعد التعميم، فليعلم.

البكاء بعينه.

ثم روى عن الأعمش، عن إبراهيم قال: قرأ عمر بن الخطاب سورة «مريم» فسجد وقال: هذا السجود، فأين البكيّ؟! يريد: فأين البكاء.

(فائدة): قال القاسمي: ﴿**أولئك**﴾؛ ما فيه من معنى البعد؛ للإشعار بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم في الفضل.

(فائدة أخرى): هٰذه الآية من الآيات التي يستحب السجود عندها للتالي والمستمع. قال ابن كثير: أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم واتباعاً لمنوالهم. اهـ.

ثم قال الله تعالى: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝ إِلَّا مَن تَابَ﴾ الآية.

قال القاسمي: ﴿**فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة**﴾؛ أي: المتضمنة للسجود والأذكار المستدعية للبكاء، وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع؛ لأنها عماد الدين وقوامه وخير أعمال العباد. ﴿**واتبعوا الشهوات**﴾؛ أي: فأتوا بما ينافي البكاء والأمور المرضية من الأخلاق والأعمال، من الانهماك في المعاصي التي هي بريد الكفر. ﴿**فسوف يلقون غياً**﴾؛ أي: شراً. ﴿**إلا من تاب**﴾؛ أي: عن ترك الصلوات واتباع الشهوات.

وقال عز وجل فيمن هدى من القسيسين والرهبان:

﴿ ۞ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[1].

---

(١) المائدة: ٨٣.

قال ابن جرير: وفيض العين من الدمع: امتلاؤها منه ثم سيلانه منها، كفيض النهر من الماء وفيض الإناء، وذلك سيلانه عن شدة امتلائه.

قال: وقوله: ﴿**مما عرفوا من الحق**﴾؛ يقول: فيض دموعهم لمعرفتهم بأن الذي يتلى عليهم من كتاب الله الذي أنزله إلى رسول الله حَقٌّ.

وروى هو والنسائي في «تفسيريهما»، قالا: حدثنا عمرو بن علي، قال: حدثنا عمر بن علي بن مُقَدّم قال: سمعت هشام بن عروة يحدث عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه: ﴿۞ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾.

قلت: وإسناده ظاهر الصحة، إلا أن عمر بن علي بن عطاء بن مُقَدّم قال الحافظ في «التقريب»: «كان يدلس شديداً». قلت: لكنه هنا صرح بالسماع.

وتقدم[1] الكلام على قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾.

* * * * *

---

(١) انظر: (صفحة ٢٧ – ٢٩).

الفصل الثاني
في بكاء النبي ﷺ عند تلاوة القرآن وسماعه

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ». قال: قلت: آقرأ عليك وعليك أنزل؟!

قال: «إِنِّي أَشْتَهِي (وفي رواية: أُحِبُّ) أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي».

قال: فقرأت «النساء» حتى إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾(١). قال لي: «كُفَّ ـ أو ـ أَمْسِكْ» (وفي رواية): «حَسْبُكَ الآنَ». فرأيت عينيه تذرفان(٢).

(وفي رواية): رفعت رأسي، أو غمزني رجل إلى جنبي، فرفعت رأسي فرأيت دموعه تسيل.

(وفي رواية): قال لي رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «اقْرَأْ عَلَيَّ».

(وفي رواية): فقرأ عليه من أول سورة «النساء».

---

(١) النساء: ٤١.

(٢) أخرجه البخاري (٨ / ٢٥٠ و٩ / ٩٣ و٩٤ و٩٨ ـ فتح)، ومسلم (٨٠٠ ـ كتاب صلاة المسافرين ـ باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظ للاستماع والبكاء عند القراءة والتدبر). والرواية الثالثة إلى الأخيرة له.

(وفي رواية): قال: قال النبي ﷺ: «شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ - أو - مَا كُنْتُ فِيهِمْ».

قال ابن بطَّال: إنما بكى ﷺ عند تلاوته هٰذه الآية لأنه مَثّل لنفسه أهوال يوم القيامة، وشدة الحال الداعية له إلى شهادته لأمته بالتصديق وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف، وهو أمر يَحِقُّ له طول البكاء.

قال الحافظ ابن حجر[1]: والذي يظهر أنه بكى رحمة لأمته؛ لأنه علم أنه لا بد أن يشهد عليهم بعملهم، وعملهم قد لا يكون مستقيماً؛ فقد يفضي إلى تعذيبهم، والله أعلم.

قال المراغي[2]: فانظر كيف اعتبر بهذه الشهادة الشهيد الأعظم ﷺ فبكى لتذكر هٰذا اليوم، وهل نعتبر كما اعتبر، ونستعد لهول ذٰلك اليوم باتباع سنته، ونجتهد في اجتناب البدع والتقاليد التي لم تكن في عهده، وبذا نكون أمة وسطاً لا تفريط عندها في الدين ولا إفراط، لا في الشؤون الجسمية ولا في الشؤون الروحية، أو نظل في غوايتنا تقليداً للآباء، فنكون كما قال الكافرون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[3].

وعن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرَّحَى[4] من البكاء ﷺ[5].

---

(١) «الفتح» (٩ / ٩٩).

(٢) «تفسيره» (٥ / ٤٤).

(٣) الزخرف: ٢٣.

(٤) (الرحى): معروفة، التي يطحن بها. قال الخطابي: أزيز الرحى: صوتها وجرجرتها. «معالم».

(٥) أخرجه أبو داود (٩٠٤) بالرواية الأولى، والنسائي (٣ / ١٣)، والترمذي في «الشمائل»=

(وفي رواية): ولجوفه أزيز كأزيز المِرْجَل من البكاء.

أي: صوت كصوت القِدْر إذا غلت.

قال ابن الأثير في «النهاية»: أي خنين من الخوف، بالخاء المعجمة؛ وهو صوت البكاء. وقيل: هو أن يَجِيش جوفُه ويغلي بالبكاء.

وعن حارثة بن مُضَرِّب، عن علي قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا قائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح(١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ الآية(٢). وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٣). فرفع يديه وقال:

«اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي»، وبكى. فقال الله عز وجل: يا جبريل، اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال ـ وهو أعلم ـ فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك(٤).

= (رقم ٣٢٣) بالرواية الثانية، وغيرهم. وقوى إسناده الحافظ في «الفتح» (٢ / ٢٠٦).

(١) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (رقم ٨٩٩)، وابن حبان (٦ / ٣٢ / رقم ٢٢٥٧)، وغيرهما، وإسناده صحيح.

(٢) إبراهيم: ٣٦.

(٣) المائدة: ١١٨.

(٤) أخرجه مسلم (٢٠٢) وغيره.

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هٰذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾[1]؛ كاد قلبي أن يطير[2].

(وفي رواية): قال جبير: فلما سمعته يقرأ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾[3]، كاد قلبي يطير.

(وفي رواية): سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي.

قوله: (كاد قلبي يطير)؛ قال الخطابي[4]: كأنه انزعج عند سماع هٰذه الآية لفهمه معناها ومعرفته بما تضمنته، ففهم الحجة فاستدركها بلطيف طبعه، وذٰلك من قوله تعالى: ﴿**أم خلقوا من غير شيء**﴾؛ قيل: معناه ليسوا أشد خلقاً من خلق السماوات والأرض، لأنهما خلقتا من غير شيء؛ أي: هل خُلقوا باطلاً لا يؤمرون ولا يُنْهَون؟ وقيل: المعنى: أم خُلقوا من غير خالق؟ وذٰلك لا يجوز، فلا بد لهم من خالق، وإذا أنكروا الخالق فهم الخالقون لأنفسهم، وذٰلك في الفساد والبطلان أشد، لأن ما لا وجود له كيف يَخلق؟! وإذا بطل

---

(١) الطور: ٣٥ ـ ٣٧.

(٢) أخرجه البخاري (٨ / ٦٠٣ ـ فتح) بهٰذا اللفظ، وأخرجه (٢ / ٢٤٧) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٤٦٣) كلاهما مختصراً. والرواية الثانية في «سنن ابن ماجه» برقم (٨٣٢)، والثالثة في «صحيح البخاري» (٧ / ٣٢٣ ـ فتح)

(٣) الطور: ٣٨.

(٤) نقلاً عن «الفتح» (٨ / ٦٠٣).

الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقاً.

ثم قال: ﴿**أم خلقوا السماوات والأرض**﴾؛ أي: إن جاز لهم أن يدعوا خلق أنفسهم فليدعوا خلق السماوات والأرض، وذٰلك لا يمكنهم، فقامت الحجة.

ثم قال: ﴿**بل لا يوقنون**﴾، فذكر العلة التي عاقتهم عن الإيمان، وهو عدم اليقين الذي هو موهبة من الله ولا يحصل إلا بتوفيقه، فلهذا انزعج جبير حتى كاد قلبه يطير، ومال إلى الإسلام. اهـ.

قال الحافظ[(١)]: ويستفاد من قوله: (فلما بلغ هٰذه الآية)؛ أنه استفتح من أول السورة، وظاهر السياق أنه قرأ إلى آخرها.

(فائدة): قال ابن القيم[(٢)]: أما بكاؤه ﷺ فكان من جنس ضحكه، لم يكن بشهيق ورفع صوت، كما لم يكن ضحكه بقهقهة، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تَهْمُلا، ويُسْمَع لصدره أزيز، وكان بكاؤه تارة رحمة للميت، وتارة خوفاً على أمته وشفقة عليها، وتارة من خشية الله، وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال مصاحب للخوف والخشية.

* * * * *

---

(١) «الفتح» (٨/ ٦٠٣ ـ ٦٠٤).

(٢) «زاد المعاد» (١/ ١٨٣).

الفصل الثالث
في بكاء الصحابة رضي الله عنهم

أبو بكر

الصديق الأكبر، خليفة رسول الله ﷺ وصاحبه، وأحب الرجال إليه، وثاني اثنين إذ هما في الغار، عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي التيمي. وهو أول من آمن برسول الله ﷺ من الرجال، ومواقفه في عصر النبوة وفي مدة خلافته أعظم من أن يشار إليها في مثل هذه الترجمة.

أخرج البخاري في «صحيحه»[(١)]: عن ابن شهاب، عن حمزة بن عبد الله؛ أنه أخبره عن أبيه قال: لما اشتد برسول الله ﷺ وجعه قيل له في الصلاة، فقال: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاس». قالت عائشة: إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ غلبه البكاء. قال: «مُرُوهُ فَيُصَلِّي». فعاودته، قال: «مُرُوهُ فَيُصَلِّي، إِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ».

وأخرج مسلم في «صحيحه»[(٢)]: من رواية حمزة بن عبد الله بن عمر، عن عائشة قالت: لما دخل رسول الله ﷺ بيتي قال: «مُرُوا أَبَا

---

(١) (٢/ ١٦٥ ـ فتح)، ولعله في مواضع أخرى.

(٢) الحديث (رقم ٩٤) من كتاب الصلاة ـ باب ٢١.

بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاس». قالت: فقلت: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن لا يملك دمعه، فلو أمرت غير أبي بكر! قالت: والله ما بي إلا كراهية أن يتشاءم الناس بأول من يقوم في مقام رسول الله ﷺ. قالت: فراجعته مرتين أو ثلاثاً، فقال: «لِيُصَلِّ بِالنَّاسِ أَبُو بَكْرٍ، فَإِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ».

وعنها رضي الله عنها قالت: لم أعقل أبَوَيّ قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار؛ بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة، حتى بلغ بَرْكَ الغِماد لقيه ابن الدَّغِنة ـ وهو سيد القارة ـ فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي. قال ابن الدَّغِنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخْرُج ولا يُخْرَج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك. فرجع وارتحل معه ابن الدَّغِنة، فطاف ابن الدَّغِنة عشية في أشراف قريش فقال لهم: إن أبا بكر لا يَخرج مثله ولا يُخرج، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟! فلم تكذب قريش بجوار ابن الدَّغِنة، وقالوا لابن الدَّغِنة: مر أبا بكر فليعبد ربَّه في داره، فليصل فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذٰلك ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا. فقال ذٰلك ابن الدَّغِنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره.

ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلي فيه ويقرأ

القرآن، فيتقذف[1] عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكّاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين. الحديث[2].

وقال الإمام الذهبي: قرأت على أبي محمد عبد الخالق بن عبد السلام ببعلبك، أنا عبد الرحمٰن بن إبراهيم، أنا أبو الحسين عبد الحق اليوسفي، أنا أبو سعد بن خُشَيش، أنا أبو علي الحسن بن أحمد، أنا ميمون بن إسحٰق، ثنا أحمد بن عبد الجبار، ثنا يونس بن بُكير، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: لقد تُحدث بأمري في الإفك واستُفيض فيه وما أشعر.

إلى أن قالت: فقال الرجل الذي قيل له ما قيل حين بلغه نزول العذر: سبحان الله! فوالذي نفسي بيده ما كشفت قط كنف أنثى. وكان مِسْطَح يتيماً في حجر أبي بكر ينفق عليه، فحلف لا ينفع مِسْطَحاً بنافعة أبداً، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[3]. فقال أبو بكر: بلى والله يا رب، إني أحب أن تغفر لي. وفاضت عيناه فبكى، رضي الله عنه.

قال الذهبي[4]: وهٰذا حديث عالٍ حسن الإسناد.

---

(١) وفي رواية معلقة (٤ / ٤٧٥ ـ ٤٧٦ ـ فتح): «فيَتَقَصَّف». قال الحافظ: «أي يزدحمون عليه حتى يسقط بعضهم على بعض فيكاد ينكسر، وأطلق يتقصف مبالغة، قال الخطابي: هٰذا هو المحفوظ، وأما «يتقذف»؛ فلا معنى له، إلا أن يكون من القذف؛ أي: يتدافعون فيقذف بعضهم بعضاً فيتساقطون عليه، فيرجع إلى معنى الأول».

(٢) أخرجه البخاري (٧ / ٢٣٠ ـ ٢٣٢ ـ فتح).

(٣) النور: ٢٢.

(٤) «تاريخ الإسلام» (١ / ٢٧٢)، وأخرجه البخاري تعليقاً (٨ / ٤٨٧ ـ ٤٨٨ ـ فتح) دون ذكر بكاء أبي بكر عند الآية، فقال: وقال أبو أسامة، عن عروة قال: أخبرني أبي عن=

وعن الأعمش، عن أبي صالح قال: لما قدم أهل اليمن زمان أبي بكر وسمعوا القرآن جعلوا يبكون. قال: فقال أبو بكر: هكذا كنا، ثم قست القلوب(١).

* * *

عمر بن الخطاب

الفاروق، خليفة خليفة رسول الله ﷺ، ومَن أعز اللهُ الإسلام به، شهيد المحراب، عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح ابن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن غالب القرشي العدوي، أبو حفص، أمير المؤمنين وأول من سمي بذلك، تمت في عهده الفتوحات العظيمة، مناقبه كثيرة وفضائله جليلة، أبو بكر وهو وزيرا رسول الله ﷺ وسيدا كهول أهل الجنة. قال ابن مسعود: كان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمامته رحمة.

قال عبد الله بن شداد: سمعت نشيج عمر وأنا في آخر الصفوف يقرأ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾(٢).

= عائشة.

قلت: وحديث الإفك مخرج في «الصحيحين» بإسناد آخر متصلاً، وإنما ذكرت هٰذه الرواية لما فيها من بكاء أبي بكر عند الآية، وقد وصلها الذهبي وحسن إسنادها كما رأيت.

(١) «الحلية» (١ / ٣٣ ـ ٣٤).

(٢) أخرجه البخاري هٰكذا معلقاً (٢ / ٢٠٦ ـ فتح)، ووصله ابن أبي شيبة في «المصنف» (١/ ٣١٢)، وابن سعد في «الطبقات» (٦ / ١٢٦)، وسعيد بن منصور، كلهم عن ابن عيينة، عن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص، سمع عبد الله بن شداد. وزاد الأخير: «في صلاة الصبح». وانظر: «الفتح».

قال ابن فارس: نشج الباكي ينشج نشيجاً؛ إذا غص بالبكاء في حلقه من غير انتحاب. وقال الهروي: النشيج صوت معه ترجيع كما يردد الصبي بكاءه في صدره. وفي «المحكم»: هو أشد البكاء[1].

وعن ابن عمر: صليت خلف عمر فسمعت خنينه من وراء ثلاثة صفوف[2].

وعن عبيد بن عمير قال: صلى بنا عمر صلاة الفجر، فافتتح «سورة يوسف» فقرأها، حتى إذا بلغ: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ بكى حتى انقطع، فركع[3].

وعنه: لما انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بكى حتى سُمع نشيجه من وراء الصفوف[4].

وعن علقمة بن وقاص قال: صليت خلف عمر بن الخطاب، فقرأ «سورة يوسف»، فكان إذا أتى على ذكر يوسف سمعت نشيجه من وراء الصفوف[5].

تفسير الآية:

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ * قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا

---

(١) نقلاً عن «الفتح».
(٢) «الحلية» (١ / ٥٢).
(٣) «الرقة والبكاء» لابن قدامة (ص ١٦٥).
(٤) المصدر السابق.
(٥) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ٤١٧).

﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

﴿**وتولى عنهم**﴾؛ أي: أعرض عن بنيه كراهة لما جاؤوا به، ﴿**وقال يا أسفا على يوسف**﴾؛ أي: يا حزني الشديد! و(الأسف): أشد الحزن والحسرة على ما فات. ﴿**وابيضت عيناه من الحزن**﴾؛ وذلك لكثرة بكائه.

قال الزمخشري: إذا كثر الاستعبار محقت العَبرة سواد العين، وقلبته إلى بياض كدر.

قوله: ﴿**فهو كظيم**﴾؛ أي: مملوء من الغيظ على أولاده ولا يُظهر ما يسوؤهم، (فعيل) بمعنى (مفعول)، كقوله: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾[2]. أو بمعنى شديد التجرع للغيظ أو الحزن؛ لأنه لم يشكه إلى أحد قط، فهو بمعنى (فاعل).

﴿**قالوا**﴾؛ أي: أولاد يعقوب لأبيهم على سبيل الرفق به والشفقة عليه: ﴿**تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً**﴾؛ أي: مريضاً مشفياً على الهلاك، ﴿**أو تكون من الهالكين**﴾؛ أي: بالموت، يقولون: إن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف. و(تفتأ) مضارع (فتىء)؛ أي: لا تزال ولا تبرح.

﴿**قال إنما أشكو بثي**﴾؛ أي: غمي وحالي، ﴿**وحزني إلى الله**﴾؛ أي: لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم، إنما أشكو إلى ربي داعياً له وملتجئاً إليه، فخلوني وشكايتي. ﴿**وأعلم من الله**﴾؛ أي: لمن شكا إليه من إزالة الشكوى ومزيد الرحمة ﴿**ما لا تعلمون**﴾، ما

---

(١) يوسف: ٨٤ـ٨٦.

(٢) القلم: ٤٨.

يوجب حسن الظن به، وهو مع ظن عبده به[١].

وقال الطبري[٢]: حدثنا ابن بشار قال: ثنا عبد الرحمٰن قال: ثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم قال: قرأ عمر بن الخطاب «سورة مريم» فسجد وقال: هذا السجود، فأين البُكِيّ؟!

وعن حُيَي قال: سمعت أبا عبد الرحمٰن الحُبُلي يذكر؛ أن عقبة ابن عامر كان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن، فقال له عمر: اعرض عليّ سورة ﴿براءة﴾. فقرأها عليه، فبكى عمر بكاءً شديداً، ثم قال: ما كنت أظن أنها أنزلت[٣].

قال الإمام الذهبي[٤]: معناه ما كأني كنت سمعتها لحسن ما حَبّرها عقبة بتلاوته، أو يكون الضمير في (نزلت) عائداً إلى آيات من السورة استغربها عمر، والله أعلم.

وقال حفص بن حميد، عن شمر بن عطية: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا قرأ هٰذه الآية: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ يبكي ويقول: رب، أنا ممن تنجي أم ممن تذر فيها جثياً؟![٥].

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: «محاسن التأويل» (٩ / ٢٦٦ ـ ٢٦٨).

(٢) «تفسيره» (١٦ / ٧٣). قلت: وسقط من الإسناد بعد إبراهيم ذِكْرُ أبي معمر، كما نبه عليه الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٣ / ١٢٧).
وقد رواه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (رقم ٤١٨) بإسناده، عن أبي خيثمة قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي قال: حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر؛ أن عمر.

(٣) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ٧٦).

(٤) «تاريخ الإسلام» (٤ / ٢٧٣).

(٥) «التخويف من النار» (ص ١٩٦).

عبد الرحمٰن بن عوف

عبد الرحمٰن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن عبد بن الحارث بن زهرة ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي، أبو محمد، أحد العشرة، وأحد الستة أهل الشورى، وأحد السابقين البدريين، القرشي الزهري، وهو أحد الثمانية الذين بادروا إلى الإسلام. «السِّيَر».

عن سعد بن إبراهيم قال: أُتي عبد الرحمٰن بن عوف بعشائه وهو صائم، فقرأ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۞ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾[1]، فلم يزل يبكي حتى رفع طعامه وما تعشى وإنه لصائم[2].

تفسير الآية:

قال ابن كثير: ﴿**إن لدينا أنكالاً**﴾؛ وهي القيود. ﴿**وجحيماً**﴾؛ وهي السعير المضطرمة. ﴿**وطعاماً ذا غصة**﴾؛ قال ابن عباس: ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج.

وقال ابن سعدي: أي عندنا ﴿**أنكالاً**﴾؛ أي: عذاباً شديداً جعلناه تنكيلاً للذي لا يزال مستمراً على ما يغضب الله. ﴿**وجحيماً**﴾؛ أي: ناراً حامية. ﴿**وطعاماً ذا غصة**﴾، وذلك لمرارته وبشاعته، وكراهة طعمه وريحه الخبيث المنتن.

* * *

عائشة

بنت الإمام الصديق الأكبر خليفة رسول الله ﷺ، القرشية التيمية

---

(١) المزمل: ١٢ و١٣.

(٢) «التخويف من النار» (ص ١٢٢).

المكية النبوية، زوجة النبي ﷺ، أفقه نساء الأمة على الإطلاق. «**السِّيَر**».

عن أبي الضحى قال: حدثني من سمع عائشة رضي الله عنها تقرأ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[1]، فتبكي حتى تبل خمارها[2].

قلت: تبكي ندماً على مسيرها إلى البصرة وخروجها يوم الجمل.

وعن القاسم قال: كنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة أسلم عليها، فغدوت يوماً فإذا هي قائمة تسبح وتقرأ: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾، وتدعو وتبكي وترددها، فقمت حتى مللت القيام، فذهبت إلى السوق لحاجتي، ثم رجعت فإذا هي قائمة كما هي، تصلي وتبكي[3].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عائشة؛ أنها قرأت هذه الآية: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾[4]، فقالت: اللهم مُنّ علينا وقنا عذاب السموم، إنك أنت البر الرحيم. قيل للأعمش: في الصلاة؟ قال: نعم[5].

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) «الحلية» (٢ / ٤٨ ـ ٤٩).

(٣) «صفة الصفوة» (٢ / ٣١).

(٤) الطور: ٢٧ و٢٨.

(٥) «تفسير ابن كثير» (٤ / ٢٤٣)، وانظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٢ / ٢٥ / رقم ٦٠٣٥).

تفسير الآيات:

قال ابن سعدي: ﴿فمن الله علينا﴾؛ بالهداية والتوفيق. ﴿ووقانا عذاب السموم﴾؛ أي: العذاب الحار الشديد حره.

﴿إنا كنا من قبل ندعوه﴾؛ أن يقينا عذاب السموم، ويوصلنا إلى النعيم، وهٰذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة؛ أي: لم نزل نتقرب إليه بأنواع العبادات وندعوه في سائر الأوقات. ﴿إنه هو البر الرحيم﴾، فمِنْ بره ورحمته إيانا أن أنالنا رضاه والجنة ووقانا سخطه والنار.

* * *

أبو هريرة

الإمام الفقيه المجتهد الحافظ، صاحب رسول الله ﷺ، أبو هريرة الدَّوسي اليماني. سيد الحفاظ الأثبات. اختلف في اسمه على أقوال جمة؛ أرجحها: عبد الرحمٰن بن صخر. «السِّيَر».

عن سليمان بن مسلم بن جَمّاز: سمعت أبا جعفر يحكي لنا قراءة أبي هريرة في ﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴾؛ يحزنها شِبْهَ الرِّثاء[1].

* * *

عبد الله بن رواحة

ابن ثعلبة، الأمير السعيد الشهيد، أبو عَمرو الأنصاري الخزرجي البدري النقيب الشاعر، شهد بدراً والعقبة. «السِّيَر».

عن بكر بن عبد الله المزني قال: نزلت هٰذه الآية: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢ / ٦٢٨ ـ ٦٢٩).

﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾[1]، ذهب عبد الله بن رواحة إلى بيته فبكى، فجاءت امرأته فبكت، فجاءت الخادم فبكت، وجاء أهل البيت فجعلوا يبكون، فلما انقطعت عبرته قال: يا أهلاه، ما الذي أبكاكم؟ قالوا: لا ندري، ولكن رأيناك بكيت فبكينا. قال: إنه أنزلت على رسول الله آية ينبئني فيها ربي عز وجل أني وارد النار، ولم ينبئني أني صادر عنها، فذلك الذي أبكاني[2].

وعن قيس بن أبي حازم قال: بكى عبد الله بن رواحة فبكت امرأته، فقال لها: ما يبكيك؟ قالت: رأيتك تبكي فبكيت. قال: إني ذكرت هٰذه الآية: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، وقد علمت أني داخلها، فلا أدري أناج منها أنا أم لا[3].

وقال موسى بن عقبة في «مغازيه»: زعموا أن ابن رواحة بكى حين أراد الخروج إلى موته، فبكى أهله حين رأوه يبكي، فقال: والله ما بكيت جزعاً من الموت ولا صبابة لكم، ولكني بكيت جزعاً من قول الله عز وجل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فأيقنت أني واردها، فلا أدري أنجو منها أم لا[4].

* * *

ثابت بن قيس

ابن شماس بن زهير بن مالك بن امرىء القيس بن مالك الأغر بن

---

(١) مريم: ٧١.

(٢) «الزهد» لابن المبارك (رقم ٢٩٤).

(٣) «الزهد» لابن المبارك (رقم ٢٩٥)، وانظر: «التخويف من النار» (ص ١٩٣).

(٤) «التخويف من النار» (ص ١٩٣ ـ ١٩٤).

ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج، أبو محمد، وقيل: أبو عبد الرحمٰن، خطيب الأنصار. كان من نجباء أصحاب محمد ﷺ، شهد أحداً وبيعة الرضوان. «السِّيَر».

عن عطاء الخراساني قال: قدمت المدينة فسألت عمن يحدثني عن حديث ثابت بن قيس بن شماس، فأرشدوني إلى ابنته، فسألتها فقالت: سمعت أبي يقول: لما أُنزل على رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[1] اشتد على ثابت، وأغلق بابه عليه وطفق يبكي، فأُخبر رسول الله ﷺ فأرسل إليه فسأله، فأخبره بما كبر عليه منها، وقال: أنا رجل أحب الجمال وأن أسود قومي. فقال:

«إِنَّكَ لَسْتَ مِنْهُمْ، بَلْ تَعِيشُ بِخَيْرٍ، وَتَمُوتُ بِخَيْرٍ، ويُدْخِلُكَ اللَّهُ الجَنَّةَ».

قال: فلما أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ ﴾[2] فعل مثل ذلك، فأُخبر النبي ﷺ فأرسل إليه، فأخبره بما كبر عليه، وأنه جهير الصوت، وأنه يتخوف أن يكون ممن حبط عمله، فقال النبي ﷺ:

«بَلْ تَعِيشُ حَمِيداً وتُقْتَلُ شَهِيْداً، وَيُدْخِلُكَ اللَّهُ الجَنَّةَ».

فلما استنفر أبو بكر رضي الله عنه المسلمين إلى قتال أهل الردة واليمامة ومسيلمة الكذاب سار ثابت بن قيس فيمن سار، فلما لقوا مسيلمة وبني حنيفة هزموا المسلمين ثلاث مرات، فقال ثابت وسالم مولى أبي حذيفة: ما هٰكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ. فجعلا

---

(١) لقمان: ١٨.

(٢) الحجرات: ٢.

لأنفسهما حفرة فدخلا فيها فقاتلا حتى قتلا.

وأري رجلٌ من المسلمين ثابتَ بن قيس في منامه فقال: إني لما قتلت بالأمس مر بي رجل من المسلمين فانتزع مني درعاً نفيسة، ومنزله في أقصى العسكر، وعند منزله فرس يستن في طوله، وقد أكفأ على الدرع برمة، وجعل فوق البرمة رجلاً، فائت خالد بن الوليد فليبعث إلى درعي فليأخذها، فإذا قدمت على خليفة رسول الله ﷺ فأعلمه أن عليَّ من الدَّين كذا وكذا، وفلان من رقيقي عتيق، وإياك أن تقول هذا حلم تضيعه. قال: فأتى خالد بن الوليد فوجه إلى الدرع فوجدها كما ذكر، وقدم على أبي بكر رضي الله عنه فأخبره، فأنفذ أبو بكر رضي الله عنه وصيته بعد موته، فلا نعلم أن أحداً جازت وصيته بعد موته إلا ثابت بن قيس بن شماس(١).

* * *

تميم الداري

صاحب رسول الله ﷺ، أبو رُقَيَّة، تميم بن أوس بن خارجة بن سود(٢) بن جَذِيمَة اللخمي الفلسطيني. كان عابداً تَلَّاءً لكتاب الله. «السِّيَر».

عن مسروق قال: قال لي رجل من أهل مكة: هٰذا مقام أخيك

---

(١) قال الهيثمي في «المجمع» (٩ / ٣٢٢): «رواه الطبراني، وبنت ثابت بن قيس لا أعرفها، وبقية رجاله رجال الصحيح، والظاهر أن بنت ثابت بن قيس صحابية؛ فإنها قالت: سمعت أبي، والله أعلم».
قلت: وأخرجه الحاكم (٣ / ٢٣٥) بنحوه، وأصله في «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) وقيل: سَوَاد.

تميم الداري، لقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح أو كاد أن يصبح يقرأ آية من كتاب الله، يركع ويسجد ويبكي: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1] [2].

قلت: سيأتي تفسير الآية[3].

***

عبد الله بن عمر

ابن الخطاب، الإمام القدوة شيخ الإسلام، أبو عبد الرحمٰن القرشي العدوي المكي ثم المدني، أسلم وهو صغير، ثم هاجر مع أبيه ولم يحتلم، واستصغر يوم أحد، فأول غزواته الخندق، وهو ممن بايع تحت الشجرة. «السِّيَر».

عن القاسم بن أبي بزة: حدثني من سمع ابن عمر رضي الله عنه قرأ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ حتى بلغ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[4]، قال: فبكى حتى خرّ، وامتنع من قراءة ما بعده[5].

تفسير الآيات:

قال ابن كثير: **﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم﴾**؛

---

(١) الجاثية: ٢١.

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١ / ١٦٤/ رقم ٤٨) وغيره، وصحح إسناده إلى مسروق الحافظ في «الإصابة».

(٣) انظر: (صفحة ٨٠ - ٨١).

(٤) المطففين: ٦.

(٥) «الزهد» لأحمد (ص ٢٤٠)، و«الحلية» (١ / ٣٠٥)، و«صفة الصفوة» (١ / ٥٧٥)، وفيها: «فبكى حتى خَرَّ».

أي: أما يخاف أولئك من المبعث، والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر، في يوم عظيم الهول، كثير الفزع، جليل الخطب، من خسر فيه أدخل ناراً حامية؟! وقوله تعالى: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾؛ أي: يقومون حفاة عراة غرلاً في موقف صعب حرج ضيق ضنك على المجرم، ويغشاهم من أمر الله تعالى ما تعجز القوى والحواس عنه.

قلت: وابن عمر رضي الله عنه هو الذي روى أن النبي ﷺ قال: «﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ في رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ»[١].

وعن البراء بن سليم قال: سمعت نافعاً مولى ابن عمر يقول: ما قرأ ابن عمر هاتين الآيتين قط من سورة البقرة إلا بكى: ﴿إِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ الآية[٢]. ثم يقول: إن هٰذا لإحصاء شديد[٣].

قال الإمام أحمد في «المسند»[٤]: حدثنا عبد الرزاق، أنا معمر، عن حميد الأعرج، عن مجاهد قال: دخلت على ابن عباس فقلت: يا أبا عباس كنت عند ابن عمر فقرأ هٰذه الآية فبكى. قال: أية آية؟ قلت: ﴿إِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾. قال ابن عباس: إن هٰذه الآية حين أنزلت غمت أصحاب رسول الله ﷺ غماً شديداً، وغاظتهم غيظاً شديداً، يعني: وقالوا: يا رسول الله، هلكنا إن كنا نؤاخذ بما تكلمنا وبما نعمل، فأما قلوبنا فليست بأيدينا.

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٦٩٦ و١١/ ٣٩٢ ـ فتح)، ومسلم (٢٨٦٢)، وغيرهما.
(٢) البقرة: ٢٨٤.
(٣) «الزهد» لأحمد (ص ٢٤١)، و «الحلية» (١/ ٣٠٥).
(٤) (١/ ٣٣٢).

فقال لهم رسول الله ﷺ:

«قُولُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا».

قال: فنسختها هٰذه الآية: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[1]؛ فتجوّز لهم عن حديث النفس وأُخذوا بالأعمال.

وقال ابن جرير[2]: حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: أخبرني يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، عن سعيد بن مرجانة يحدث: أنه بينا هو جالس سمع عبد الله بن عمر تلا هٰذه الآية: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ الآية، فقال: والله لئن آخَذَنا الله بهذا لنهلكنّ. ثم بكى ابن عمر حتى سُمع نشيجه.

فقال ابن مرجانة: فقمت حتى أتيت ابن عباس فذكرت له ما تلا ابن عمر وما فعل حين تلاها، فقال عبد الله بن عباس: يغفر الله لأبي عبد الرحمٰن! لعمري لقد وجد المسلمون منها حين أنزلت مثل ما وجد عبد الله بن عمر، فأنزل الله بعدها: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلى آخر السورة. قال ابن عباس: فكانت هٰذه الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين بها، وصار الأمر أن قضى الله عز وجل أن للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت في القول والفعل.

وقال ابن جرير[3]: حدثني المثنى قال: حدثنا إسحٰق قال: حدثنا عبد الرزاق، عن جعفر بن سليمان، عن حميد الأعرج، عن

(١) البقرة: ٢٨٥ و٢٨٦.

(٢) «تفسيره» (٣/ ١٤٤).

(٣) «تفسيره» (٣/ ١٤٥).

مجاهد قال: كنت عند ابن عمر فقرأ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ الآية، فبكى. فدخلت على ابن عباس فذكرت له ذٰلك، فضحك ابن عباس فقال: يرحم الله ابن عمر! أوَما يدري فيم أُنزلت؟ إن هٰذه الآية حين أُنزلت غمّت أصحاب رسول الله ﷺ غمّاً شديداً، وقالوا: يا رسول الله، هلكنا! فقال لهم رسول الله ﷺ:

«قُولُوا: سَمِعْنَا وأَطَعْنَا». فنسختها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾. فتجوَّز لهم عن حديث النفس، وأُخذوا بالأعمال.

قال ابن كثير[1]: هٰذه طرق صحيحة عن ابن عباس.

تفسير الآيات بذكر حديث صحيح ورد فيها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت على رسول الله: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ، ثم بركوا على الركب فقالوا: أي رسول الله، كُلفنا من الأعمال ما نطيق؛ الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هٰذه الآية ولا نطيقها.

قال رسول الله ﷺ:

«أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا

(١) «تفسيره» (١ / ٣٣٩).

وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ».

قالوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأها القوم ذلّت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾. «قال: نعم».

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾. «قال: نعم».

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾. «قال: نعم».

﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾. «قال: نعم»[1].

وقوله: ﴿**ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا**﴾؛ قال ابن كثير: أي لا تكلفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم، التي بعثت نبيك محمداً ﷺ نبي الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به، من الدين الحنيفي السهل السمح.

وقوله: ﴿**ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به**﴾؛ أي: من التكليف والمصائب والبلاء.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٥) وغيره.

وقوله: ﴿**واعف عنا**﴾؛ أي: فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا. ﴿**واغفر لنا**﴾؛ أي: فيما بيننا وبين عبادك، فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة. ﴿**وارحمنا**﴾؛ أي: فيما يستقبل، فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر، ولهٰذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره.

وقوله: ﴿**أنت مولانا**﴾؛ أي: أنت ولينا وناصرنا، وعليك توكلنا، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك. ﴿**فانصرنا على القوم الكافرين**﴾؛ أي: الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك ورسالة نبيك، وعبدوا غيرك، وأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة. اهـ.

وعن نافع قال: كان ابن عمر رضي الله عنه إذا قرأ: ﴿ ۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(١)؛ بكى حتى يغلبه البكاء(٢).

(وفي رواية)(٣): أنه كان إذا أتى على هٰذه الآية: ﴿ ۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ بكى حتى يبلَّ لحيته البكاء، ويقول: بلى يا ربّ.

تفسير الآية:

قال ابن سعدي: لما ذكر حال المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات في الدار الآخرة كان ذٰلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربها والاستكانة لعظمته، فعاتب الله المؤمنين على عدم ذٰلك فقال:

---

(١) الحديد: ١٦.

(٢) «الحلية» (١ / ٣٠٥).

(٣) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ٧٧).

﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾؛ أي: ألم يأت الوقت الذي به تلين قلوبهم وتخشع لذكر الله الذي هو القرآن، وتنقاد لأوامره وزواجره، وما نزل من الحق الذي جاء به محمد ﷺ؟ وهٰذا فيه الحث على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلهية والأحكام الشرعية كل وقت، ويحاسبوا أنفسهم على ذٰلك.

﴿ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد﴾؛ أي: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه ولم يثبتوا، بل طال عليهم الزمان واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم وزال إيقانهم. **﴿فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾**؛ فالقلوب تحتاج في كل وقت إلى أن تذكر بما أنزل الله وتناطق بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذٰلك، فإنه سبب لقسوة القلب وجمود العين.

وعن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن أبيه؛ أنه قرأ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْـنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾[1] حتى ختم الآية، فجعل ابن عمر يبكي حتى لَثِقَتْ[2] لحيته وجيبه من دموعه.

قال عبد الله: فحدثني الذي كان إلى جنب ابن عمر قال: لقد أردت أن أقوم إلى عبيد بن عمير فأقول له: اقصر عليك فإنك قد آذيت هٰذا الشيخ[3].

---

(١) النساء: ٤١.

(٢) أي: ابتلّت.

(٣) «طبقات ابن سعد» (٤ / ١٦٢).

(وفي رواية): أن أباه كان يقص لابن الزبير، وابن عمر قاعد ناحية، فقرأ: ﴿ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴾، فبكى ابن عمر حتى لَثِقَ جيبُه من دموعه وابتلت لحيته[1].

تفسير الآيات:

أي: فكيف يكون حال الخلائق وقتئذ إذا جاء الله من كل أمة بشهيد عليها، وجاء بك يا محمد (ﷺ) شهيداً على أمتك؟! كيف يكون الحال في ذلك اليوم الشديد العصيب، اليوم الذي تبلى فيه السرائر، وتنكشف فيه الخفيات، ويحاسب كل أحد بما قدم في حياته الدنيا؟! الحال كما قال الله سبحانه: **﴿يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً﴾**؛ أي: يودون أن يصيروا تراباً هم والأرض سواء، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾[2].

وقوله: **﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾**؛ قال ابن سعدي: أي بل يعترفون له بما عملوا، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، ﴿ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ ﴾؛ جزاءهم الحق، ﴿ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴾[3].

قال: فأما ما ورد من أن الكفار يكتمون كفرهم وجحودهم، فإن ذلك يكون في بعض مواضع القيامة، حين يظنون أن جحودهم ينفعهم من عذاب الله، فإذا عرفوا الحقائق وشهدت جوارحهم حينئذ ينجلي

---

(١) «الرقة والبكاء» (رقم ١١٢).
(٢) النبأ: ٤٠.
(٣) النور: ٢٥.

الأمر ولا يبقى للكتمان موضع ولا نفع ولا فائدة.

وعن عبد الله بن عقيل بن شمير الرياحي، عن أبيه قال: شرب عبد الله بن عمر ماء بارداً فبكى، فاشتد بكاؤه، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت آية في كتاب الله عز وجل: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[1]. قال: فعرفت أن أهل النار لا يشتهون شيئاً إلا الماء البارد، وقد قال الله عز وجل: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾[2] [3].

وعن نافع قال: كان ابن عمر يقرأ في صلاته، فيمر بالآية فيها ذكر الجنة فيقف ويسأل الجنة. قال: ويدعو ويبكي. قال: ويمر بالآية فيها ذكر النار فيقف ويستجير بالله عز وجل[4].

* * *

ابن عباس

البحر، حبر الأمة، وفقيه العصر، وإمام التفسير، أبو العباس عبد الله بن عَمّ رسول الله ﷺ العباس بن عبد المطلب شيبة بن هاشم، واسمه عمرو بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ابن غالب بن فِهر القرشي الهاشمي المكي الأمير، صحب النبي ﷺ نحواً من ثلاثين شهراً، وحدث عنه بجملة صالحة، وعن عمر وعلي ومعاذ وخلق. «السِّيَر».

---

(١) سبأ: ٥٤.

(٢) الأعراف: ٥٠.

(٣) «الزهد» لأحمد (ص ٢٣٨).

(٤) «الزهد» لأحمد (ص ٢٤١).

عن عبد الله بن أبي مليكة قال: صحبت ابن عباس رضي الله تعالى عنه من مكة إلى المدينة، فكان إذا نزل قام شطر الليل. قال: فسأله أيوب: كيف كانت قراءته؟ قال: قرأ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[1]، فجعل يرتل ويكثر في ذاكم النشيج[2].

تفسير الآية:

قال ابن جرير: وفي قوله: **﴿وجاءت سكرة الموت بالحق﴾** وجهان من التأويل:

أحدهما: ﴿وجاءت سكرة الموت﴾، وهي شدته وغلبته على فهم الإنسان، كالسكرة من النوم أو الشراب. **﴿بالحق﴾** من أمر الآخرة، فتبينه الإنسان حتى تَثَبَّته وعرفه.

والثاني: وجاءت سكرة الموت بحقيقة الموت.

وقوله: **﴿ذٰلك ما كنت منه تحيد﴾**؛ يقول: هٰذه السكرة التي جاءتك أيها الإنسان بالحق هو الشيء الذي كنت تهرب منه وعنه تروغ.

وعنه رضي الله عنه؛ أنه كان إذا قرأ هٰذه الآية: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾[3] بكى، وقال: آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخول قبرك[4].

قلت: ويروى مثل ذلك عن الحسن البصري ـ كما سيأتي[5] ـ،

---

(١) قٓ: ١٩.
(٢) «الحلية» (١ / ٣٢٧).
(٣) مريم: ٨٤.
(٤) «روح المعاني» (١٦ / ١٣٥).
(٥) انظر: (صفحة ١٠١).

ولعله منه استفاد وبه اقتدى.

تفسير الآية:

قال ابن جرير: قوله: ﴿فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً﴾؛ يقول عَزّ ذكره: فلا تعجل على هؤلاء الكافرين بطلب العذاب لهم والهلاك يا محمد، ﴿إنما نعد لهم عداً﴾؛ يقول: فإنما نؤخر إهلاكهم ليزدادوا إثماً، ونحن نعد أعمالهم كلها ونحصيها حتى أنفاسهم لنجازيهم على جميعها، ولم نترك تعجيل هلاكهم لخير أردناه بهم.

وروى عن ابن عباس قوله: ﴿إنما نعد لهم عداً﴾؛ يقول: أنفاسهم التي يتنفسون في الدنيا، فهي معدودة كسنهم وآجالهم.

قلت: وسيأتي مزيد تفسير لهٰذه الآية عند ذكر الحسن البصري[1].

* * *

عبد الله بن حنظلة

عبد الله بن حنظلة الغسيل بن أبي عامر الراهب عبد عمرو بن صيفي بن النعمان، أبو عبد الرحمٰن الأنصاري الأوسي المدني، من صغار الصحابة، استشهد أبوه يوم أحد، فغسلته الملائكة لكونه جنباً. قتل عبد الله يوم الحرة (سنة ٦٣). «السِّيَر».

عن عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام قال: سمعت عبد الله بن حنظلة يوماً وهو على فراشه وعُدْتُه من علته، فتلا رجل عنده هٰذه الآية: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾[2]، فبكى حتى ظننت

(١) انظر: (صفحة ١٠١ - ١٠٢).

(٢) الأعراف: ٤١.

أن نفسه ستخرج، وقال: صاروا بين أطباق النار. ثم قام على رجلين، فقال قائل: يا أبا عبد الرحمٰن، اقعد، قال: منعني القعود ذكر جهنم، ولا أدري لعلي أحدهم.

تفسير الآية:

قال ابن جرير: لهؤلاء الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها **﴿من جهنم مهاد﴾**؛ وهو ما امتهده مما يقعد عليه ويضطجع، كالفراش الذي يفرش والبساط الذي يبسط، **﴿ومن فوقهم غواش﴾**؛ وهو جمع «غاشية»، وذلك ما غشاهم فغطاهم من فوقهم.

قال: وإنما معنى الكلام: **﴿لهم من جهنم مهاد﴾**؛ من تحتهم فرش، **﴿ومن فوقهم﴾** منها لحف، وإنهم بين ذٰلك.

* * *

النجاشي

اسمه أصحمة، ملك الحبشة، معدود في الصحابة رضي الله عنهم، وكان ممن حسن إسلامه، ولم يهاجر ولا له رؤية، فهو تابعي من وجه صاحب من وجه، وقد توفي في حياة النبي ﷺ، فصلى عليه بالناس صلاة الغائب[1]. «السِّيَر».

عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خيرَ جارٍ؛ النجاشيَّ، أمنا على ديننا وعبدنا الله، لا نؤذى ولا نسمع بشيء نكرهه.

إلى أن قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له:

(١) وذٰلك مروي في «صحيح البخاري» وغيره.

أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القويُّ منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا.

إلى أن قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء. قالت: فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشي: فاقرأه علي. فقرأ عليه صدراً من ﴿كهيعص﴾. قالت: فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم. ثم قال النجاشي: إن هٰذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقوا فوالله لا أسلمهم إليكم أبداً ولا أكاد[1].

قلت: وفيه نزل قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[2]، فروى ابن جرير وغيره عن الزهري قال: ما زلت أسمع علماءنا يقولون: نزلت في النجاشي وأصحابه[3].

* * * * *

(١) أخرجه أحمد (١ / ٢٠١ ـ ٢٠٣ و٥ / ٢٩٠ ـ ٢٩٢) وغيره. وقال الهيثمي في «المجمع» (٦ / ٢٧): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحٰق وقد صرح بالسماع». وقال أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(٢) المائدة: ٨٣.

(٣) وانظر: (صفحة ٤٥).

الفصل الرابع
في بكاء التابعين ومن بعدهم

يزيد الضَّبِّي

يزيد بن نُعَامة الضَّبِّي، وقيل: السُّوائي، أبو مودود البصري، يروي عن أنس بن مالك، تابعي، لا صحبة له. «أسد الغابة» و«الجرح والتعديل».

قرأ رجل على يزيد الضّبّي: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾[1]، فجعل يزيد يبكي حتى غشي عليه[2].

تفسير الآية:

قال القاسمي: **﴿وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد﴾**، جمع (مُقَرَّن)؛ وهو من جمع في قَرَن ـ بفتحتين ـ: الوثاق الذي يربط به؛ أي: قرن بعضهم مع بعض حسب اقترانهم في الجرائم والفساد، فيجمع بين النظراء والأشكال منهم، كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾[3]. وقال: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ

---

(١) إبراهيم: ٤٩.

(٢) «التخويف من النار» (ص ١٠٣).

(٣) الصافات: ٢٢.

زُوِّجَتْ ﴾[1]. أو: قُرِنَتْ أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال[2].

وقوله تعالى: ﴿في الأصفاد﴾؛ أي: القيود أو الأغلال، جمع (صَفَد) ـ بفتحتين ـ، بمعنى القيد أو الغل، والقيد هو الذي يوضع في الرجل. والغُل ـ بالضم ـ: ما في اليد والعنق، وما يضم به اليد والرجل إلى العنق، والجار متعلق بـ﴿مقرنين﴾، أو حال من ضميره؛ أي: مصفدين.

* * *

الربيع بن خُثَيْم

ابن عائذ، الإمام القدوة العابد، أبو يزيد الثوري الكوفي، أحد الأعلام. أدرك زمان النبي ﷺ، وروى عن ابن مسعود وأبي أيوب الأنصاري وعَمرو بن ميمون، وهو قليل الرواية إلا أنه كبير الشأن. (ت قبل ٦٥). «السِّيَر».

عن عبد الرحمٰن بن عجلان قال: بتُّ عند الربيع بن خثيم ذات ليلة، فقام يصلي، فمَرّ بهٰذه الآية: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ الآية[3]، فمكث ليلته حتى أصبح، ما جاوز هٰذه الآية إلى غيرها، ببكاء شديد[4].

تفسير الآية:

قال ابن سعدي: أي؛ أم حسب المسيؤون المكثرون من الذنوب

---

(١) التكوير: ٧.

(٢) قلت: هٰذه الأقوال كلها تحتملها الآية، ولا مانع من كونها جميعاً معنىً لها.

(٣) الجاثية: ٢١.

(٤) «الحلية» (٢/ ١١٢).

المقصرون في حقوق ربهم ﴿أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾، بأن قاموا بحقوق ربهم، واجتنبوا مساخطه، ولم يزالوا مؤثرين رضاه على هوى أنفسهم؟! أي: أحسبوا أن يكونوا سواء في الدنيا والآخرة؟! ساء ما ظنوا وحسبوا، وساء ما حكموا به، فإنه حكم يخالف حكمة أحكم الحاكمين وخير العادلين، ويناقض العقول السليمة والفطر المستقيمة، ويضاد ما نزلت به الكتب وأخبرت به الرسل.

بل الحكم الواقع القطعي؛ أن المؤمنين العاملين الصالحات لهم النصر والفلاح والسعادة والثواب في العاجل والآجل، كل على قدر إحسانه، وأن المسيئين لهم الغضب والإهانة والعذاب والشقاء في الدنيا والآخرة.

* * *

زياد بن حُدَيْر الأسدي

قال المزي في «تهذيب الكمال»: أبو المغيرة، ويقال: أبو عبد الرحمٰن الكوفي، روى عن عبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب.

وقال الحافظ في «التقريب»: له ذكر في «الصحيح»، ثقة، عابد.

وقال أبو نعيم في «حلية الأولياء»: ومنهم معظِّم الأمانة، ومنظِّم الديانة، الفقيه التقي، العامل الوفي، زياد بن حُدَيْر الأسدي. كان زياد قليل المسانيد، أسند عن علي وعبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنهما.

عن حفص بن حُمَيْد قال: قال لي زياد بن حُدَيْر: اقرأ عَلَيّ.

فقرأت عليه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾، فقال: يا بن أمّ زياد[1]، أنقض ظهر رسول الله ﷺ! فجعل يبكي كما يبكي الصبي[2].

* * *

عامر بن عبدِ قَيْس

القدوة الولي الزاهد أبو عبد الله، ويقال: أبو عَمْرو، التميمي العنبري البصري، عابد زمانه، من كبار التابعين. (ت زمن معاوية[3]). «السِّيَر» و «تاريخ الإسلام».

عن همام بن يحيى قال: بكى عامر بن عبد الله[4] في مرضه الذي مات فيه بكاء شديداً، فقيل له: ما يبكيك يا أبا عبد الله؟

قال: آية في كتاب الله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[5][6].

تفسير الآية:

معنى الآية: أن الله عز وجل إنما يتقبل الأعمال من عباده إذا اتقوه فيها، فأدوها على وجهها من الخشية له والرجاء لما عنده، إيماناً واحتساباً، وإخلاصاً له سبحانه، ولا يقبلها عز وجل منهم حتى تكون على الهَدي المستقيم والسنة الصحيحة.

* * *

---

(١) في «تهذيب الكمال» (٩ / ٤٥٠): «ويل أم زياد».
(٢) «الحلية» (٤ / ١٩٧).
(٣) وفي «طبقات القراء» للجزري: «زمن عثمان»، وفي «المنتظم»: «ت ٦٩».
(٤) ويعرف بعامر بن عبد قيس، كما هو عنوان الترجمة.
(٥) المائدة: ٢٧.
(٦) «كتاب المحتضرين» (رقم ١٧٩).

الحارث بن سويد

الحارث بن سويد التيمي الكوفي، روى عن عمر وعلي وعبد الله ابن مسعود، وغيرهم، كنيته أبو عائشة، وكان كبير القدر رفيعاً ثقة نبيلاً. (ت ٧٢). «تاريخ الإسلام».

عن إبراهيم التيمي قال: قرأ الحارث بن سويد: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[١]، فبكى، ثم قال: إن عذاب الآخرة لشديد[٢].

* * *

صفوان بن مُحْرِز

المازني، البصري، العابد، أحد الأعلام. حدث عن أبي موسى الأشعري وعمران بن حُصَيْن وحكيم بن حزام وابن عمر. «السِّيَر». (ت ٧٤). «التقريب».

عن عبد الله بن رباح قال: كان صفوان بن مُحْرِز المازني إذا قرأ هٰذه الآية: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[٣] بكى حتى أقول: اندق قَصص زوره[٤].

---

(١) الزلزلة: ٧ و٨.

(٢) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ٨٩).

(٣) الشعراء: ٢٢٧.

(٤) وهو منبت شعره على صدره، ويقال له: القَصُّ والقَصَصُ؛ وهو عظم الصدر المغروزُ فيه شَراسِيفُ الأضلاع في وسطه. راجع «اللسان».
وفي «الحلية»: «قصيص زوره»، وفي «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ٧٨): «قضيض زوره»، وأظن أن الصحيح ما أثبتّه، والمعنى ما بينته، والله أعلم.

وقيل: إنه كان قد اتخذ لنفسه سَرَباً يبكي فيه[1].

* * *

عَمرو بن عتبة

ابن فَرْقَد، من كبار تابعي أهل الكوفة، مشهور بالتعبد والزهد، شغلته العبادة عن الرواية، استشهد في غزوة أذْرَبِيْجان، وذٰلك في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه. «الحلية» و«صفة الصفوة». ذكره الذهبي في «تاريخه» في (وفيات ٧١ ـ ٨٠).

عن أحمد بن يونس اليربوعي عمن حدثه قال: قام عمرو بن عتبة يصلي، فقرأ حتى بلغ: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ ﴾ الآية[2]، فبكى حتى انقطع، ثم قعد، فعل ذٰلك حتى أصبح[3].

وعن هشام الدُّسْتوائي قال: لما توفي عمرو بن عتبة بن فرقد دخل بعض أصحابه على أخته فقال: أخبرينا عنه. فقالت: قام ذات ليلة فاستفتح سورة ﴿حمٓ﴾، فلما أتى على هٰذه الآية: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾، فما جاوزها حتى أصبح[4].

تفسير الآية:

قال ابن سعدي: يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: **﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾**؛ أي: يوم القيامة التي قد أزفت وقربت وآن الوصول إلى

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٤ / ٢٨٦): والسَّرَب: الحَفير أو البيت تحت الأرض.

(٢) غافر: ١٨. ونصها: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾.

(٣) «تاريخ الإسلام» (٥ / ٤٩٤).

(٤) «حلية الأولياء» (٤ / ١٥٨).

أهوالها وقلاقلها وزلازلها. ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾؛ أي: قد ارتفعت وبقيت أفئدتهم هواء، ووصلت القلوب من الروع والكرب إلى الحناجر شاخصة أبصارهم، ﴿كاظمين﴾؛ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمٰن وقال صواباً، وكاظمين على ما في قلوبهم من الروع الشديد والمزعجات الهائلة. ﴿ما للظالمين من حميم﴾؛ أي: قريب ولا صاحب، ﴿ولا شفيع يطاع﴾، لأن الشفعاء لا يشفعون في الظالم نفسَه بالشرك، ولو قدرت شفاعتهم فالله تعالى لا يرضى شفاعتهم فلا يقبلها. اهـ.

قلت: وذكروا في معنى: ﴿كاظمين﴾؛ أي باكين. قاله ابن جريج.

* * *

عبد الملك بن مروان

ابن الحكم بن أبي العاص بن أُميّة، الخليفة الفقيه، أبو الوليد الأموي. سمع عثمان وأبا هريرة وأبا سعيد وأم سلمة ومعاوية وابن عمر وبَرِيرَة وغيرهم. تملك بعد أبيه الشام ومصر، ثم حارب ابن الزبير الخليفة، وقتل أخاه مُصْعباً في وقعة مَسْكِن، واستولى على العراق، وجَهّز الحَجّاج لحرب ابن الزبير، فقتل ابن الزبير، واستوسقت المماليك لعبد الملك، وكان من رجال الدهر ودهاة الرجال، وكان الحَجّاج من ذنوبه. (ت ٨٦). «السِّيَر».

عن عبد الملك بن مروان؛ أنه شرب ماءً بارداً فقطعه وبكى، فقيل: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟

قال: ذكرت شدة العطش يوم القيامة، وذكرت أهل النار وما

مُنِعوا من بارد الشراب، ثم قرأ: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾[1] [2].

تفسير الآية:

قال ابن كثير: ﴿**يتجرعه**﴾؛ أي: يتغصصه ويتكرهه؛ أي: يشربه قهراً وقسراً، لا يضعه في فمه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾[3].

﴿**ولا يكاد يسيغه**﴾؛ أي: يردِّده، لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يستطاع.

* * *

الحَجّاج (!)

أمير العراق من قبل عبد الملك بن مروان، وقاتل سعيد بن جبير.

قال الذهبي: كان ظلوماً جباراً ناصبياً خبيثاً، سفاكاً للدماء، وكان ذا شجاعة وإقدام، ومكر ودهاء، وفصاحة وبلاغة، وتعظيم للقرآن. (ت ٩٥). «السِّيَر».

عن أبي سعد قال: خطبنا الحجاج فقال: ابن آدم، أنت اليوم تأكل وغداً تؤكل، ثم تلا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[4]، ثم بكى حتى جعل يتلقى دموعه بعمامته[5].

---

(١) إبراهيم: ١٧.
(٢) «التخويف من النار» (ص ١٢٥).
(٣) الحج: ٢١.
(٤) آل عمران: ١٨٥، والأنبياء: ٣٥، والعنكبوت: ٥٧.
(٥) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ١١٠).

تفسير الآية:

قال ابن كثير: يخبر تعالى إخباراً عاماً يعم جميع الخليقة؛ بأن كل نفس ذائقة الموت، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(١)، فهو تعالى وحده الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون، وكذٰلك الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخراً كما كان أولاً. وهٰذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدة وفرغت النطفة التي قدر الله وجودها من صلب آدم وانتهت البرية أقام الله القيامة، وجازى الخلائق بأعمالها، جليلها وحقيرها، قليلها وكثيرها، كبيرها وصغيرها، فلا يظلم أحداً مثقال ذرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(٢).

* * *

طَلْق بن حَبِيب العَنَزي

بصري زاهد كبير، من العلماء العاملين، حدث عن ابن عباس وابن الزبير وغيرهما، وكان طيب الصوت بالقرآن. رُوي عن طاووس قال: ما رأيت أحداً أحسن صوتاً منه، وكان ممن يخشى الله تعالى. (ت قبل ١٠٠). «السِّيَر».

عن سفيان قال: كان طلق إذا قرأ بكى وأبكى، وكان إذا قرأ لم يسمعه أحد إلا بكى، من رقته وحسن صوته.

---

(١) الرحمٰن: ٢٦ و٢٧.

(٢) آل عمران: ١٨٥.

قال: وقالت له أمه: ما أحسن صوتك يا بني بالقرآن، فليته لا يكون وبالاً عليك غداً في القيامة. فبكى حتى غشي عليه[١].

* * *

عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز

الشاب الناسك العابد، له حكايات في زهده وخوفه. (ت ١٠٠ أو نحوها). «تاريخ الإسلام».

عن عاصم بن أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان قال: وفدت إلى سليمان بن عبد الملك ومعنا عمر بن عبد العزيز، فنزلت على ابنه عبد الملك بن عمر وهو عزب، فكنت معه في بيت، فصلينا العشاء وأوى كل رجل منا إلى فراشه، ثم قام عبد الملك إلى المصباح فأطفأه وأنا أنظر إليه، ثم قام يصلي حتى ذهب بي النوم، فاستيقظت فإذا هو يقرأ هٰذه الآية: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾[٢]، فيبكي ثم يرجع إليها، فإذا فرغ منها فعل مثل ذٰلك، حتى قلت: سيقتله البكاء، فلما رأيت ذلك قلت: لا إله إلا الله والحمد لله كالمستيقظ من النوم لأقطع ذلك عنه، فلما سمعني سكت فلم أسمع له حساً[٣].

وفي «لطائف المعارف»[٤]: تلا بعض السلف هذه الآية وبكى، وقال: إذا جاء الموت لم يغن عن المرء ما كان فيه من اللذة والنعيم.

---

(١) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ٨٧).
(٢) الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧.
(٣) «الرقة والبكاء» لابن قدامة (ص ٣٠٨).
(٤) (ص ٥٢٠ ـ ٥٢١).

تفسير الآية:

قال ابن كثير: أي لو أخرناهم وأنظرناهم وأملينا لهم برهة من الدهر وحيناً من الزمان وإن طال، ثم جاءهم أمر الله؛ أي شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعيم.

وقال ابن جرير: ﴿**ما أغنى عنهم**﴾؛ يقول: أي شيء أغنى عنهم التأخير الذي أخرنا في آجالهم، والمتاع الذي متعناهم به من الحياة، إذ لم يتوبوا من شركهم، هل زادهم تمتيعنا إياهم ذٰلك إلا خبالاً؟! وهل نفعهم شيئاً؟! بل ضرهم بازديادهم من الآثام، واكتسابهم من الإجرام ما لو لم يمتعوا لم يكتسبوه.

* * *

أبو صالح السَّمّان

القدوة الحافظ الحجة، ذكوان بن عبد الله مولى أم المؤمنين جويرية الغطفانية. كان من كبار العلماء بالمدينة، ولد في خلافة عمر، وسمع من سعد بن أبي وقاص وعائشة وأبي هريرة ولازمه مدة، وسمع من ابن عباس وأبي سعيد وابن عمر وغيرهم. (ت ١٠١). «السِّيَر».

عن الأعمش قال: كان أبو صالح مؤذناً، فأبطأ الإمام، فأمّنا، فكان لا يكادُ يُجيزها من الرقة والبكاء، رحمه الله[١].

* * *

عمر بن عبد العزيز

ابن مروان بن الحكم، الإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥ / ٣٧).

العابد السيد، أمير المؤمنين حقاً، أبو حفص، القرشي الأموي المدني ثم المصري، الخليفة الزاهد الراشد، أَشَجُّ بني أُمَيَّة. (ت ١٠١). «السِّيَر».

عن ابن أبي ذيب قال: حدثني مَنْ شهد عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة، وقرأ عنده رجل: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾[1]، فبكى حتى غلبه البكاء وعلا نشيجه، فقام من مجلسه فدخل بيته، وتفرق الناس[2].

تفسير الآية:

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: وإذا أُلقي هؤلاء المكذبون بالساعة من النار مكاناً ضيقاً، قد قُرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال **﴿دعوا هنالك ثبوراً﴾**.

قال: والثبور في هٰذا الموضع؛ دعاء هؤلاء القوم بالندم على انصرافهم عن طاعة الله في الدنيا، والإيمان بما جاءهم به نبي الله ﷺ، حتى استوجبوا العقوبة منه.

وقال ابن كثير: والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسارة والدمار.

وعن سعيد بن أبي عروبة؛ أن عمر بن عبد العزيز قال لابنه: اقرأ. فقال: ما أقرأ؟ قال: سورة ﴿قٓ﴾. فقرأ حتى بلغ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾، فبكى.

ثم قال: اقرأ يا بني. قال: ما أقرأ؟ قال: سورة ﴿قٓ﴾. حتى بلغ

---

(١) الفرقان: ١٣.

(٢) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ٨٣).

ذكر الموت بكى أيضاً بكاء شديداً، ففعل ذلك مراراً[1].

قلت: المعنى أنه أعاد قراءة السورة مراراً وبكى عند قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ﴾. خلافاً لما توهمه بعضهم من أنه بكى في المرة الثانية عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ﴾، والله أعلم.

وعن سعيد بن الفضيل مولى بني زهرة قال: حدثني رجل من بني ضبة قال: شهدت رجلاً قرأ عند عمر بن عبد العزيز، فلما انتهى إلى هٰذه الآية: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾[2] بكى عمر حتى اشتد بكاؤه، ثم ازداد بكاء، فلم يزل يبكي حتى غشي عليه[3].

وتقدم تفسير الآية[4]:

وعن أبي مودود قال: بلغني أن عمر بن عبد العزيز قرأ ذات يوم: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾[5]، فبكى بكاء شديداً حتى سمعه أهل الدار، فجاءت فاطمة[6] فجعلت تبكي لبكائه، وبكى أهل الدار لبكائهم، فجاء عبد الملك فدخل عليهم وهم على تلك الحال يبكون فقال: يا أبه، ما يبكيك؟ قال: خير يا بني، ودّ أبوك أنه لم يعرف الدنيا ولم تعرفه، والله يا بني لقد خشيت أن أهلك، والله يا بني لقد خشيت أن أكون من

(١) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ٨٤).
(٢) الطور: ٢٧.
(٣) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ٨٨).
(٤) انظر: (صفحة ٦٢).
(٥) يونس: ٦١.
(٦) هي فاطمة بنت عبد الملك زوج عمر بن عبد العزيز.

أهل النار[1].

تفسير الآية:

قال ابن كثير: يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين، كقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[2]. فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات، وكذلك الدواب السارحة في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ﴾ الآية[3]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ الآية[4]، وإذا كان هٰذا علمه بحركات هٰذه الأشياء فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة؟! كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ * ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[5]، ولهٰذا قال تعالى: **﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾**؛ أي: إذ تأخذون في ذٰلك الشيء نحن مشاهدون لكم راؤون سامعون، ولهٰذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ

---

(١) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ٩١).
(٢) الأنعام: ٥٩.
(٣) الأنعام: ٣٨.
(٤) هود: ٦.
(٥) الشعراء: ٢١٧ ـ ٢١٩.

لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(١).

وعن مقاتل بن حيان قال: صليت خلف عمر بن عبد العزيز، فقرأ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾(٢)، فجعل يكررها لا يستطيع أن يجاوزها. (يعني: من البكاء)(٣).

تفسير الآية:

قال المراغي: ﴿**وقفوهم إنهم مسؤولون**﴾؛ أي: واحبسوهم في الموقف حتى يُسألوا عما كسبت أيديهم واجترحوا من الآثام والمعاصي، وعن تلك العقائد الزائغة التي زينها لهم الشيطان فأضلتهم عن سواء السبيل.

وعن عبد الأعلى بن أبي عبد الله العَنَزي قال: رأيت عمر بن عبد العزيز خرج يوم الجمعة في ثياب دسمة ووراءه حبشي يمشي، فلما انتهى إلى الناس رجع الحبشي، فكان عمر إذا انتهى إلى الرجلين قال: هٰكذا رحمكما الله. حتى صعد المنبر، فخطب فقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، فقال: وما شأن الشمس؟! ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾، حتى انتهى إلى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۞ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾، فبكى وبكى أهل المسجد، وارتج المسجد بالبكاء، حتى رأيت أن حيطان المسجد تبكي معه.

تفسير الآيات:

قال ابن سعدي: أي إذا حصلت هٰذه الأمور الهائلة تميز الخلق،

---

(١) حديث متفق على صحته.

(٢) الصافات: ٢٤.

(٣) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ٩٤ و٤٢٦).

وعلم كلٌّ ما قدمه لآخرته وما أحضره فيها من خير وشر، وذٰلك أنه إذا كان يوم القيامة تكور الشمس؛ أي: تجمع وتلف، ويخسف القمر، ويلقيان في النار.

﴿**وإذا النجوم انكدرت**﴾؛ أي: تغيرت وتناثرت من أفلاكها.

﴿**وإذا الجبال سيرت**﴾؛ أي: صارت كثيباً مهيلاً، ثم صارت كالعهن المنفوش، ثم تغيرت وصارت هباءً منبثاً، وأُزيلت من أماكنها.

﴿**وإذا العشار عطلت**﴾؛ أي: عطل الناس يومئذ نفائس أموالهم التي كانوا يهتمون لها ويراعونها في جميع الأوقات، فجاءهم ما يذهلهم عنها، فنبه بالعشار ـ وهي النوق التي تتبعها أولادها، وهي أنفس أموال العرب إذ ذاك عندهم ـ على ما هو في معناها من كل نفيس.

﴿**وإذا الوحوش حشرت**﴾؛ أي: جمعت ليوم القيامة ليقتص الله من بعضها لبعض، ويري العباد كمال عدله، حتى إنه يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء، ثم يقال لها: كوني تراباً.

﴿**وإذا البحار سجرت**﴾؛ أي: أوقدت، فصارت على عظمها ناراً تتوقد.

﴿**وإذا النفوس زوجت**﴾؛ أي: قرن كل صاحب عمل مع نظيره؛ فجمع الأبرار مع الأبرار، والفجار مع الفجار، وزوج المؤمنون بالحور العين، والكافرون بالشياطين، وهٰكذا، كقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾[1]، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ

(١) الزمر: ٧١.

﴿زُمَرًاۖ﴾(١)، ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾(٢).

﴿وإذا الموؤودة سئلت﴾؛ وهي ما كانت الجاهلية الجهلاء تفعله من دفن البنات وهن أحياء من غير سبب إلا خشية الفقر، فتُسْأل: ﴿بأي ذنب قتلت﴾، ومن المعلوم أنها ليس لها ذنب، ولٰكن هٰذا فيه توبيخ وتقريع لقاتليها.

﴿وإذا الصحف﴾ المشتملة على ما عمله العاملون من خير وشر ﴿نشرت﴾ وفرقت على أهلها، فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره.

﴿وإذا السماء كشطت﴾؛ أي: أزيلت، كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾(٣)، ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾(٤)، ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾(٥).

﴿وإذا الجحيم سعرت﴾؛ أي: أوقد عليها فاستعرت والتهبت التهاباً لم يكن لها قبل ذٰلك.

﴿وإذا الجنة أزلفت﴾؛ أي: قربت للمتقين.

﴿علمت نفس﴾؛ أي: كل نفس، لإتيانها في سياق الشرط، ﴿ما أحضرت﴾؛ أي: ما حضر لديها من الأعمال التي قدمتها، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾(٦).

---

(١) الزمر: ٧٣.
(٢) الصافات: ٢٢.
(٣) الفرقان: ٢٥.
(٤) الأنبياء: ١٠٤.
(٥) الزمر: ٦٧.
(٦) الكهف: ٤٩.

وهٰذه الأوصاف التي وصف بها يوم القيامة من الأوصاف التي تنزعج لها القلوب، وتشتد من أجلها الكروب، وترتعد الفرائص، وتعم المخاوف، وتحث أولي الألباب للاستعداد لذٰلك اليوم، وتزجرهم عن كل ما يوجب اللوم، ولهٰذا قال بعض السلف: من أراد أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليتدبر سورة ﴿**إذا الشمس كورت**﴾[1].

وعن ميمون بن مِهران قال: قرأ عمر بن عبد العزيز: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ فبكى، ثم قال: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾، ما أرى المقابر إلا زيارة، ولا بد لمن يزورها أن يرجع إلى الجنة أو إلى النار[2].

تفسير «سورة التكاثر»:

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: ألهاكم أيها الناس المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة ربكم وعما ينجيكم من سخطه عليكم.

وقوله: ﴿**حتى زرتم المقابر**﴾؛ يعني: حتى صرتم إلى المقابر فدُفنتم بها، وفي هٰذا دليل على صحة القول بعذاب القبر؛ لأن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء القوم الذين ألهاهم التكاثر أنهم سيعلمون ما يلقون إذا هم زاروا القبور وعيداً منه لهم وتهدداً.

---

(١) بل ثبت هذا مرفوعاً من حديث ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيَ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**﴾ و ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ**﴾ و ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ**﴾».
أخرجه الترمذي (٣٣٣٣)، والحاكم (٢ / ٥١٥ و٤ / ٥٧٦)، وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني في «الصحيحة» (٣ / ٧٠)، وأخرجه أحمد (٢ / ٢٧ و٣٦ و١٠٠) وغيره.

(٢) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ٤٢٥).

وقوله: ﴿**كلا سوف تعلمون**﴾؛ يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿**كلا**﴾؛ ما هٰكذا ينبغي أن تفعلوا أن يلهيكم التكاثر، وقوله: ﴿**سوف تعلمون**﴾؛ يقول جل ثناؤه: سوف تعلمون إذا زرتم المقابر أيها الذين ألهاهم التكاثر غِبّ فعلكم واشتغالكم بالتكاثر في الدنيا عن طاعة الله ربكم.

وقوله: ﴿**ثم كلا سوف تعلمون**﴾؛ يقول: ثم ما هٰكذا ينبغي أن تفعلوا أن يلهيكم التكاثر بالأموال وكثرة العدد، سوف تعلمون إذا زرتم المقابر ما تلقون إذا زرتموها من مكروه اشتغالكم عن طاعة ربكم بالتكاثر. وكرر قوله: ﴿**كلا سوف تعلمون**﴾ مرتين لأن العرب إذا أرادت التغليظ في التخويف والتهديد كرروا الكلمة مرتين(١).

وقوله: ﴿**كلا لو تعلمون علم اليقين**﴾؛ يقول تعالى ذكره: ما هٰكذا ينبغي أن تفعلوا؛ أن يلهيكم التكاثر أيها الناس، لو تعلمون أيها الناس علماً يقيناً أن الله باعثكم يوم القيامة من بعد مماتكم من قبوركم ما ألهاكم التكاثر عن طاعة الله ربكم، ولسارعتم إلى عبادته والانتهاء إلى أمره ونهيه، ورفض الدنيا إشفاقاً على أنفسكم من عقوبته.

وقال ابن سعدي: ﴿**لترون الجحيم**﴾؛ أي: لترون القيامة فلترون الجحيم التي أعدها الله للكافرين.

﴿**ثم لترونها عين اليقين**﴾؛ أي: رؤية بصرية، كما قال تعالى: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾(٢).

---

(١) أو هو تكرار مع اختلاف في المعنى المراد والتهديد المقصود. راجع ـ إن شئت ـ كتابي: «ألهاكم التكاثر» (ص ٢٠).

(٢) الكهف: ٥٣.

﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ الذي تنعمتم به في دار الدنيا، هل قمتم بشكره وأديتم حق الله فيه، ولم تستعينوا به على معاصيه، فينعمكم نعيماً أعلى منه وأفضل، أم اغتررتم به ولم تقوموا بشكره؟! بل ربما استعنتم به على المعاصي، فيعاقبكم على ذلك، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ الآية[1].

وعن مالك قال: قرأ عمر بن عبد العزيز: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ حتى انتهى إلى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾، فخنقته العبرة فسكت، ثم عاد فقرأ حتى بلغها، فخنقته العبرة فسكت، فلما رأى ذٰلك تركها وقرأ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾.

قال محمد بن رشد[2]: هٰذا من فعل عمر بن عبد العزيز نهاية الخوف لله تعالى. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿فأنذرتكم ناراً تلظى﴾؛ أي: تتوقد وتستعر.

وعن يزيد بن محمد بن مسلمة قال: حدثني مولى لنا قال: بكت فاطمة بنت عبد الملك حتى عشي بصرها، فدخل عليها أخواها مسلمة وهشام فقالا: ما هٰذا الأمر الذي دمت عليه؟ أجزعك على بعلك؟ فأحق من جزع على مثله، أم على شيء فاتك من الدنيا؟ فها نحن بين يديك وأموالنا وأهلونا. فقالت: ما من كل جزعت، ولا على واحد منها أسفت، ولكني والله رأيت منه ليلة منظراً، فعلمت أن الذي أخرجه إلى ذلك الذي رأيت منه، رأيت منه هولاً عظيماً قد أسكن في قلبه معرفته. قالا: وما رأيت منه؟ قالت: رأيته ذات ليلة قائماً يصلي،

---

(١) الأحقاف: ٢٠.

(٢) «البيان والتحصيل»: (١ / ٤٧٩).

فأتى على هذه الآية: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾، فصاح: واسوء صباحاه. ثم وثب فسقط، فجعل يخور حتى ظننت أن نفسه ستخرج، ثم هدأ فظننت أنه قد قضى، ثم أفاق إفاقة فنادى: واسوء صباحاه. ثم وثب وجعل يجول في الدار، ويقول: ويلي من يوم يكون الناس فيه كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش[(١)]

تفسير الآيات:

قوله تعالى: ﴿**يوم يكون الناس كالفراش المبثوث**﴾؛ أي: في انتشارهم وتفرقهم وذهابهم ومجيئهم من حيرتهم مما هم فيه من الهول والفزع، كأنهم فراش مبثوث؛ أي: منتشر.

وقوله تعالى: ﴿**وتكون الجبال كالعهن المنفوش**﴾؛ يعني: قد صارت كأنها الصوف المنفوش الذي قد شرع في الذهاب والتمزق، تطيره أدنى ريح[(٢)].

وعن عبد السلام مولى مسلمة بن عبد الملك قال: بكى عمر بن عبد العزيز، فبكت فاطمة، فبكى أهل الدار، لا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء، فلما تجلت عنهم العَبرة قالت له فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين، مم بكيت؟ قال: ذكرت منصرف القوم من بين يدي الله عز وجل: ﴿ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴾[(٣)][(٤)].

* * *

---

(١) «المنتظم» (٤ / ٥٤٠ ـ ٥٤١).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» و «تفسير ابن سعدي».

(٣) الشورى: ٧.

(٤) «صفة الصفوة» (٢ / ١٢١).

الحسن البصري

ابن أبي الحسن يسار، أبو سعيد مولى زيد بن ثابت، ويقال: مولى جميل بن قُطْبة، إمام أهل البصرة، بل إمام أهل العصر، ولد في خلافة عمر. رأى عثمان وعلياً وطلحة والكبار، ويروى أن ثدي أم سلمة دَرّ عليه ورضعها غير مرة. كان سيد أهل زمانه علماً وعملاً. (ت ١١٠). «السِّيَر» و «تاريخ الإسلام».

عن موسى بن إسماعيل قال: سمعت شعيباً صاحب الطيالسة قال: رأيت الحسن يقرأ القرآن فيبكي حتى ينحدر الدمع على لحيته[١].

وعن سلام بن أبي مطيع قال: أُتِيَ الحسنُ بكوز من ماء ليفطر عليه، فلما أدناه إلى فيه بكى وقال: ذكرت أمنيّة أهل النار وقولهم: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾[٢]، وذكرت ما أُجيبوا به: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٣] [٤].

وعن هشام بن حسان قال: انطلقت أنا ومالك بن دينار إلى الحسن، فانتهينا إليه وعنده رجل يقرأ، فلما بلغ هٰذه الآية: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۞ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾[٥] بكى الحسن، وبكى أصحابه، وجعل مالك يضطرب حتى غُشي عليه[٦].

---

(١) «طبقات ابن سعد» (٧/ ١٧٥).
(٢) الأعراف: ٥٠.
(٣) الأعراف: ٥٠.
(٤) «التخويف من النار» (ص ١٢٤).
(٥) الطور: ٧ و٨.
(٦) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ٩٢).
قلت: وهٰذا الاضطراب والغشيان إنما هو لقوة الوارد وشدته حتى غلب صاحبه، وقد=

وكان الحسن يقول في موعظته: المبادرة عباد الله! المبادرة! فإنما هي الأنفاس، لو قد حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تَقَرَّبون بها إلى الله عز وجل، رحم الله امرءاً نظر لنفسه، وبكى على ذنوبه.

ثم قرأ هٰذه الآية: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾(١)، ثم يبكي ويقول: آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخولك في قبرك(٢).

قلت: وتقدم مثل هٰذا عن ابن عباس رضي الله عنهما(٣).

تفسير الآية:

قال ابن كثير: قوله: **﴿فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً﴾**؛ أي: لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم، **﴿إنما نعد لهم عداً﴾**؛ أي: إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله.

وقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الآيـــة(٤)، ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾(٥)، ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا

= كان هٰذا في الصحابة كالمعدوم، وإنما كثر فيمن بعدهم، كما نبه إلى مثله شيخ الإسلام وغيره، وحال الصحابة أقوى وأكمل وأجل.

وقد روى الإمام أحمد في «الزهد» (ص ٢٤٢): عن أبي حازم قال: مر ابن عمر برجل ساقط من أهل العراق، فقال: ما شأنه؟ قالوا: إنه إذا قرىء عليه القرآن يصيبه هٰذا. قال: إنا لنخشى الله وما نسقط.

(١) مريم: ٨٤.

(٢) «قصر الأمل» (رقم ١٤٦).

(٣) انظر: (صفحة ٧٥).

(٤) إبراهيم: ٤٢.

(٥) الطارق: ١٧.

إِثْمًا﴾[1]، ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[2]، ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾[3].

وقال السدي: إنما نعد لهم عد السنين والشهور والأيام والساعات. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿**إنما نعد لهم عداً**﴾؛ قال: نعد أنفاسهم في الدنيا. اهـ.

***

ميمون بن مِهْران

الإمام الحجة، عالم الجزيرة ومفتيها، أبو أيوب الجَزري الرَّقّي، حدث عن أبي هريرة وعائشة وابن عباس وغيرهم. (ت ١١٦ أو ١١٧). «السِّيَر».

عن أبي المليح قال: قرأ يوماً ميمون: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[4] فَرَقّ حتى بكى، ثم قال: ما سمع الخلائق بعَتْب أشد منه قط[5].

يعني بالعتب قوله تعالى بعدها: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[6].

---

(١) آل عمران: ١٧٨.
(٢) لقمان: ٢٤.
(٣) إبراهيم: ٣٠.
(٤) يس: ٥٩.
(٥) «الحلية» (٢/ ٩٢).
(٦) يس: ٦٠ و٦١.

تفسير الآيات:

قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا؛ بمعنى: يميزوا عن المؤمنين في موقفهم، كقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾(١)، وقال عز وجل: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾(٢). ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾(٣)؛ أي: يصيرون صدعين؛ فرقتين، ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿**ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين**﴾، هٰذا تقريع من الله تعالى للكفرة من بني آدم الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم، ولهٰذا قال تعالى: ﴿**وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم**﴾؛ أي: قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان، وأمرتكم بعبادتي، وهٰذا هو الصراط المستقيم، فسلكتم غير ذٰلك، واتبعتم الشيطان فيما أمركم به. اهـ.

* * *

حَمّاد بن أبي سليمان

العلامة الإمام، فقيه العراق، أبو إسماعيل بن مسلم الكوفي

---

(١) يونس: ٢٨.
(٢) الروم: ١٤.
(٣) الروم: ٤٣.
(٤) الصافات: ٢٢ و٢٣.

مولى الأشعريين، أصله من أصبهان. روى عن أنس بن مالك، وتفقه بإبراهيم النَّخَعي، وهو أنبل أصحابه وأفقههم، وأكبر شيخ له أنس بن مالك، فهو في عداد صغار التابعين، وكان أحد العلماء الأذكياء، والكرام الأسخياء. (ت ١١٩ أو ١٢٠). «السِّيَر».

قال ابن سعد(١): أخبرنا مالك بن إسماعيل قال: سمعت أمي ـ وهي ابنة إسماعيل بن حماد بن أبي سليمان ـ تقول: ربما رأيت المصحف في حجر جَدّي حماد بن أبي سليمان ودموعه في الورق.

* * *

يزيد الرَّقّاشي

يزيد بن أبان الرقاشي البصري أبو عَمرو، الزاهد العابد، روى عن أنس. قال النسائي وغيره: متروك. وقال الدارقطني وغيره: ضعيف. وقال أحمد: منكر الحديث. وذكره البخاري فيمن مات في عشر ومئة إلى عشرين ومئة. «ميزان الاعتدال» و «تهذيب التهذيب».

عن إسماعيل بن ذكوان قال: كان يزيد الرقاشي إن دخل بيته بكى، وإن شهد جنازة بكى، وإن جلس إليه إخوانه بكى وأبكاهم، فقال له ابنه يوماً: يا أبه، كم تبكي! والله لو كانت النار خلقت لك ما زدت على هٰذا البكاء! فقال: ثكلتك أمك يا بني! وهل خلقت النار إلا لي ولأصحابي ولإخواننا من الجن.

أما تقرأ يا بني: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾(٢).

---

(١) «طبقات ابن سعد» (٦ / ٣٣٣).

(٢) الرحمٰن: ٣١.

أما تقرأ يا بني: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾[1]؟ فجعل يقرأ عليه حتى انتهى إلى: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾[2].

قال: فجعل يجول في الدار ويصرخ ويبكي حتى غشي عليه(!!).

فقالت للفتى أمه: يا بني، ما أردتَ إلى هٰذا من أبيك؟ فقال: والله إنما أردت أن أهوِّن عليه، لم أرد أن أزيده حتى يقتل نفسه[3].

تفسير الآيات:

قوله تعالى: ﴿**يطوفون بينها وبين حميم آن**﴾؛ قال ابن كثير: أي تارة يعذبون في الجحيم وتارة يسقون من الحميم؛ وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب يقطع الأمعاء والأحشاء، وهٰذه كقوله تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۞ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿**آن**﴾؛ أي: حار قد بلغ الغاية في الحرارة، لا يستطاع من شدة ذٰلك. اهـ.

وعن صالح المُرِّي قال: سمعت يزيد الرقاشي يقرأ هذه الآية على أصحابه ويبكي: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ۞ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ۞ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴾[5]. قال: يقول الملائكة بعضهم لبعض: من أيّ باب يرتقي

---

(١) الرحمٰن: ٣٥.

(٢) الرحمٰن: ٤٤.

(٣) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ٢٤٨).

(٤) غافر: ٧١ و٧٢.

(٥) القيامة: ٢٦ ـ ٢٨.

بعمله؟ فيرتقي فيه بروحه. ويقول أهله: هذا والله حين فراقه. فيبكي إليهم ويبكون إليه، ولا يستطيع أن يحير إليهم جواباً. قال: ثم بكى يزيد بكاء شديداً[1].

تفسير الآيات:

قال ابن سعدي: يعظ تعالى عباده بذكر المُحْتَضَر حال السياق، وأنه إذا بلغت روحه التراقي، وهي العظام المكتنفة لثغرة النحر، فحينئذٍ يشتد الكرب ويطلب كل وسيلة وسبب يظن أن يحصل به الشفاء والراحة، ولهذا قال: ﴿**وقيل من راق**﴾؛ أي: مَنْ يرقيه، من الرقية؛ لأنهم انقطعت آمالهم من الأسباب العادية، فتعلقوا بالأسباب الإلهية، ولكن القضاء والقدر إذا حتم وجاء فلا مَرَدّ له. ﴿**وظن أنه الفراق**﴾ للدنيا.

* * *

ثابت البُنَاني

الإمام القدوة شيخ الإسلام أبو محمد ثابت بن أَسْلَم البُناني، مولاهم البصري، ولد في خلافة معاوية، وحدث عن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن مُغَفَّل، وغيرهما. وكان من أئمة العلم والعمل. (ت ١٢٣ أو ١٢٧). «السِّيَر».

عن جعفر بن سليمان؛ عن ثابت البناني أنه قرأ: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾[2]، قال: تأكله إلى فؤاده وهو حي، لقد تبلغ فيهم العذاب،

---

(١) «تهذيب الكمال» (٣٢ / ٧٣).

(٢) هي في سورة الهمزة: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ * كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ * نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ * ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾.

ثم بكى وأبكى من حوله[1].

وعن عفان بن مسلم قال: حدثنا حماد بن سلمة؛ أن ثابتاً كان يقرؤها: ويلك ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾[2]، وهو يصلي صلاة الليل، ينتحب ويرددها[3].

قلت: هٰذه القراءة على وجه التفسير.

وعن جعفر قال: سمعت ثابتاً يقول: ما تركت في المسجد الجامع سارية إلا وقد ختمت القرآن عندها وبكيت عندها[4].

* * *

هارون بن رئاب

الإمام الرباني العابد، أبو بكر التميمي الأُسَيِّدي البصري. حدث عن أنس بن مالك. قال ابن شوذب: كنت إذا رأيت هارون بن رئاب كأنما أقلع عن البكاء. «السِّيَر» و«تاريخ الإسلام» (وفيات ١٢١ - ١٣٠).

عن عمران بن خالد الخزاعي قال: كان هارون بن رئاب الأسيدي يقوم من الليل للتهجد، وربما ردد هٰذه الآية حتى يصبح: ﴿ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[5].

قال: ويبكي، فهو كذٰلك حتى يصبح، أو قال: يذهب ليل

---

(١) «الحلية» (٢ / ٣٢٣).

(٢) الكهف: ٣٧.

(٣) «طبقات ابن سعد» (٧ / ٢٣٣).

(٤) «المنتظم» (٤ / ٦٥٥).

(٥) الأنعام: ٢٧.

طويل، وكان إذا قام للتهجد قام مسروراً[1].

تفسير الآية:

قال ابن سعدي: يقول تعالى مخبراً عن حال المشركين يوم القيامة وإحضارهم النار: ﴿**ولو ترى إذ وقِفوا على النار**﴾ ليوبخوا ويقرعوا، لرأيت أمراً هائلاً وحالاً مفظعة، ولرأيتهم كيف أقروا على أنفسهم بالكفر والفسوق وتمنوا أن لو يردون إلى الدنيا.

وقال ابن كثير: يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك قالوا: ﴿**يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين**﴾، يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً، ولا يكذبوا بآيات ربهم، ويكونوا من المؤمنين.

* * *

محمد بن واسع

ابن جابر بن الأخنس، الإمام الرباني، القدوة، أبو بكر، ويقال: أبو عبد الله، الأزدي ا لبصري، أحد الأعلام. روى عن أنس وغيره.

وروى معتمر عن أبيه: ما رأيت أحداً قط أخشع من محمد بن واسع. (ت ١٢٣ أو ١٢٧). «السِّيَر».

عن عنبسة الخواص قال: بلغني أن محمد بن واسع كان يجعل: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ ورداً، ويردّدها ويبكي[2].

---

(١) «التهجد» لابن أبي الدنيا (رقم ٥١).

(٢) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ٤٢٨).

تفسير الآيات:

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ * لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ * أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾.

قال ابن سعدي: يذكر تعالى أحوال يوم القيامة وما فيها من الأهوال الطامّة، وأنها تغشى الخلائق بشدائدها فيجازون بأعمالهم، ويتميزون إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

﴿**وجوه يومئذٍ**﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿**خاشعة**﴾ من الذل والفضيحة والخزي.

﴿**عاملة ناصبة**﴾؛ أي: تاعبة في العذاب، تُجَرُّ على وجوهها، ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾[1].

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿**وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة**﴾ في الدنيا لكونهم في الدنيا أهل عبادات وعمل، ولكنه لما عدم شرطه وهو الإيمان، صار يوم القيامة هباء منثوراً.

وهٰذا الاحتمال وإن كان صحيحاً من حيث المعنى فلا يدل عليه

---

(١) إبراهيم: ٥٠.

سياق الكلام، بل الصواب المقطوع به هو الاحتمال الأول لأنه قيده بالظرف، وهو يوم القيامة، ولأن المقصود هنا بيان ذكر أهل النار عموماً، وذٰلك الاحتمال جزء قليل بالنسبة إلى أهل النار، ولأن الكلام في بيان حال الناس عند غشيان الغاشية، فليس فيه تعرض لأحوالهم في الدنيا.

وقوله: ﴿**تصلى ناراً حامية**﴾؛ أي: شديداً حرها، تحيط بهم من كلٍّ مكان. ﴿**تسقى من عين آنية**﴾؛ أي: شديدة الحرارة. ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾(١)، فهٰذا شرابهم.

وأما طعامهم، فإنهم ﴿**ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع**﴾، وذٰلك لأن المقصود من الطعام أحد أمرين:

إما أن يسد جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإما أن يسمن بدنه من الهزال.

وهٰذا الطعام ليس فيه شيء من هٰذين الأمرين، بل هو طعام في غاية المرارة والنتن والخسة، نسأل الله العافية.

وأما أهل الخير، فوجوههم يوم القيامة ﴿**ناعمة**﴾؛ أي: قد جرت عليهم نضرة النعيم، فنضرت أبدانهم، واستنارت وجوههم، وسروا غاية السرور.

﴿**لسعيها**﴾ الذي قدمته في الدنيا من الأعمال الصالحة، والإحسان إلى عباد الله.

﴿**راضية**﴾ إذ وجدت ثوابه مدخراً مضاعفاً، فحمدت عقباه،

---

(١) الكهف: ٢٩.

وحصل لها كل ما تتمناه.

وذٰلك أنها ﴿**في جنة**﴾ جامعة لأنواع النعيم كلها، ﴿**عالية**﴾ في محلها ومنازلها، فمحلها في أعلى عليين، ومنازلها مساكن عالية لها غرف، ومن فوق الغرف غرف مبنية، يشرفون على ما أعد الله لهم من الكرامة.

﴿**لا تسمع فيها**﴾؛ أي: في الجنة، ﴿**لاغية**﴾؛ أي: كلمة لغو وباطل فضلاً عن الكلام المحرم، بل كلامهم كلام حسن نافع، مشتمل على ذكر الله وذكر نعمه المتواترة عليهم، وعلى الآداب الحسنة بين المتعاشرين، الذي يسر القلوب ويشرح الصدور.

﴿**فيها عين جارية**﴾، وهذا اسم جنس؛ أي: فيها العيون الجارية التي يفجرونها ويصرفونها كيف شاؤوا وأنَّى أرادوا.

﴿**فيها سرر مرفوعة**﴾، و«السرر» جمع «سرير»، وهي المجالس المرتفعة في ذاتها، وبما عليها من الفرش اللينة الوطيئة.

﴿**وأكواب موضوعة**﴾؛ أي: أوانٍ ممتلئة من أنواع الأشربة اللذيذة قد وضعت بين أيديهم، وأعدت لهم، وصارت تحت طلبهم واختيارهم، يطوف بها عليهم الولدان المخلدون.

﴿**ونمارق مصفوفة**﴾؛ أي: وسائد من الحرير والإستبرق وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله، قد صفت للجلوس والاتكاء عليها، وقد أريحوا عن أن يصنعوها أو يَصُفُّوها بأنفسهم.

﴿**وزرابي مبثوثة**﴾، والزرابي هي: البسط الحسان، ﴿**مبثوثة**﴾؛ أي: مملوءة بها مجالسهم من كل جانب.

يقول تعالى حثاً للذين لا يصدقون الرسول ﷺ ولغيرهم من

الناس أن يتفكروا في مخلوقات الله الدالة على توحيده:

﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت**﴾؛ أي: ألا ينظرون إلى خلقها البديع، وكيف سخرها الله للعباد وذللها لمنافعهم الكثيرة التي يضطرون إليها. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿**وإلى السماء كيف رفعت**﴾؛ أي: هذا الرفع العظيم في المدى السحيق، حيث أُمسكت أجرامها في نظام لا يختل ولا يفسد، مما يدل على عظيم قدرة الله عز وجل.

قال ابن سعدي: ﴿**وإلى الجبال كيف نصبت**﴾؛ بهيئة باهرة حصل بها الاستقرار للأرض وثباتها من الاضطراب، وأودع فيها من المنافع الجليلة ما أودع.

﴿**وإلى الأرض كيف سطحت**﴾؛ أي: مدت مداً واسعاً وسهلت غاية التسهيل، ليستقر العباد على ظهرها، ويتمكنوا من حرثها وغراسها، والبنيان فيها، وسلوك طرقها.

واعلم أن تسطيحها لا ينافي أنها كرة مستديرة قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها، كما دل على ذلك النقل والعقل والحس والمشاهدة، كما هو مذكور معروف عند كثير من الناس، خصوصاً في هٰذه الأزمنة التي وقف فيها الناس على أكثر أرجائها، بما أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعيد.

فإن التسطيح إنما ينافي كروية الجسم الصغير جداً، الذي لو سطح لم يبق له استدارة تذكر.

وأما جسم الأرض الذي هو كبير جداً وواسع، فيكون كروياً مسطحاً، لا يتنافى الأمران، كما يعرف ذلك أرباب الخبرة.

﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾؛ أي: ذكر الناس وعظهم وأنذرهم وبشِّرهم، فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تبعث مسيطراً عليهم مُسلَّطاً، ولا موكلاً بأعمالهم.

فإذا قمت بما عليك، فلا عليك بعد ذٰلك لوم، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[1].

وقوله: ﴿**إلا من تولى وكفر**﴾؛ أي: لٰكن من تولى عن الطاعة وكفر بالله ﴿**فيعذبه الله العذاب الأكبر**﴾؛ أي: الشديد الدائم، ﴿**إن إلينا إيابهم**﴾؛ أي: رجوع الخلائق وجمعهم في يوم القيامة.

﴿**ثم إن علينا حسابهم**﴾ على ما عملوا من خير وشر. اهـ.

* * *

مالك بن دينار

البصري الزاهد الشهيد. قال الذهبي: علم العلماء الأبرار، معدود في ثقات التابعين، ومن أعيان كتبة المصاحف، ولد في أيام ابن عباس، وسمع من أنس بن مالك. (ت ١٢٧ أو ١٣٠). «السِّيَر».

عن الحارث بن سعد قال: كنا عند مالك بن دينار، وعندنا قارىء يقرأ، فقرأ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، حتى انتهى إلى هٰذه الآية: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾، فجعل مالك والله يبكي ويشهق[2].

تفسير السورة:

قال ابن سعدي: يخبر تعالى عما يكون يوم القيامة، وأن الأرض

---

(١) قٓ: ٤٥.

(٢) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ٩٠) مختصراً.

تتزلزل وترتجف وترتج، حتى يسقط ما عليها من بناء ومعلم، فتندك جبالها، وتسوى تلالها، وتكون قاعاً صفصفاً لا عوج فيه ولا أمت.

﴿**وأخرجت الأرض أثقالها**﴾؛ أي: ما في بطنها من الأموات والكنوز.

﴿**وقال الإنسان**﴾ إذا رأى ما عراها من الأمر العظيم: ﴿**مالها**﴾؟! أي: أي شيء عرض لها؟!

﴿**يومئذ تحدث**﴾ الأرض ﴿**أخبارها**﴾؛ أي: تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر، فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم.

ذٰلك ﴿**بأن ربك أوحى لها**﴾؛ أي: أمرها أن تخبر بما عُمل عليها، فلا تعصي لأمره.

﴿**يومئذ يصدر الناس**﴾ من موقف القيامة ﴿**أشتاتاً**﴾؛ أي: فرقاً متفاوتين، ﴿**ليُروا أعمالهم**﴾؛ أي: ليريهم الله ما عملوا من السيئات والحسنات، ويريهم جزاءه موفوراً.

﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾، وهٰذا شامل عام للخير والشر كله، لأنه إذا رأى مثقال الذرة التي هي أحقر الأشياء وجوزي عليها، فما فوق ذٰلك من باب أولى وأحرى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾(١)، ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾(٢).

---

(١) آل عمران: ٣٠.

(٢) الكهف: ٤٩.

وهٰذا فيه الترغيب في فعل الخير ولو قليلاً، والترهيب من فعل الشر ولو حقيراً.

* * *

محمد بن قيس

محمد بن قيس المدني، قاصّ عمر بن عبد العزيز، وكان كثير الحديث عالماً. قال الفَسَوي وأبو داود: ثقة. «تهذيب الكمال».

وذكره الذهبي في «تاريخ الإسلام» في (وفيات ١٢١ ـ ١٣٠).

عن أبي معشر قال: كان محمد بن قيس إذا أراد أن يُبكي أصحابه قرأ آيات قبل أن يتكلم، وكان من أحسن الناس صوتاً. فإذا قرأ بكى وأبكى.

قال: ثم يتكلم بعد ذلك[1].

* * *

محمد بن المنكدر

ابن عبد الله بن الهُدَير بن عبد العزى بن عامر بن الحارث بن حارثة بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي، الإمام الحافظ القدوة، شيخ الإسلام أبو عبد الله القرشي التيمي المدني. ويقال: أبو بكر. أخو أبي بكر وعمر. روى عن عائشة وأبي هريرة وجابر وابن عباس وغيرهم. (ت ١٣٠، وقيل: ١٣١). «السِّيَر».

أبو حازم

سلمة بن دينار، الإمام القدوة، الواعظ، شيخ المدينة النبوية أبو

(١) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ٨٢).

حازم المديني المخزومي، مولاهم الأعرج الأفزر (الأحدب)، التمّار القاص الزاهد، وقيل: ولاؤه لبني ليث. ولد في أيام ابن الزبير وابن عمر. روى عن سهل بن سعد، وأبي أمامة بن سهل، وسعيد بن المسيب، وغيرهم. (ت١٣٣، وقيل غير ذٰلك). «السِّيَر».

عن يحيى بن الفضيل الأنيسي قال: سمعت بعض من يذكر عن محمد بن المنكدر؛ أنه بينا هو ذات ليلة قائم يصلي إذ استبكى وكثر بكاؤه، حتى فزع أهله وسألوه ما الذي أبكاه، فاستعجم عليهم وتمادى في البكاء، فأرسلوا إلى أبي حازم فأخبروه بأمره، فجاء أبو حازم إليه فإذا هو يبكي، قال: يا أخي، ما الذي أبكاك؟ قد رعت أهلك، أفمن علة أم ما بك؟

قال: فقال: إنه مرت بي آية في كتاب الله عز وجل. قال: وما هي؟ قال: قول الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾[1].

قال: فبكى أبو حازم أيضاً معه واشتد بكاؤهما، قال: فقال بعض أهله لأبي حازم: جئنا بك لتفرج عنه فزدته! قال: فأخبرهم ما الذي أبكاهما[2].

قلت: وهٰكذا كان حاله عند الموت؛ يخشى أن يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب، فعن عكرمة، عن محمد بن المنكدر أنه جزع عند الموت، فقيل له: لم تجزع؟ فقال: أخشى آية من كتاب الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾، وإني أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أكن أحتسب[3].

---

(١) الزمر: ٤٧.

(٢) «الحلية» (٣/ ١٤٦).

(٣) «الحلية» (٣/ ١٤٦).

تفسير الآية:

ونصها: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾.

قال ابن سعدي: إنهم ـ على الفرض والتقدير ـ لو كان لهم ما في الأرض جميعاً؛ من ذهبها وفضتها ولؤلؤها وحيواناتها وأشجارها وزروعها وجميع أوانيها وأثاثها ومثله معه، ثم بذلوه يوم القيامة ليفتدوا به من العذاب وينجوا منه ما قُبل منهم ولا أغنى عنهم من عذاب الله شيئاً، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[(١)].

وقال ابن كثير: قوله عز وجل: **﴿ولو أن للذين ظلموا﴾**؛ وهم المشركون **﴿ما في الأرض جميعاً ومثله معه﴾**؛ أي: ولو أن جميع ما في الأرض وضعفه معه **﴿لافتدوا به من سوء العذاب﴾**؛ أي: الذي أوجبه الله تعالى لهم يوم القيامة، ومع هٰذا لا يقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهباً، كما قال في الآية الأخرى[(٢)].

﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾؛ أي: وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم. اهـ.

* * *

عمر بن المنكدر

عمر بن المنكدر المدني العابد، من كبار الصالحين، له ترجمة في «طبقات ابن سعد». «السِّيَر».

---

(١) الشعراء: ٨٨ و٨٩.

(٢) وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

وذكره ابن الجوزي في «المنتظم» في (وفيات ١٣٢)، وقال: كان من العباد المجتهدين وقُوّام الليل.

وهو أخو محمد المتقدم قبل قليل.

عن سالم أبي بسطام قال: كان عمر بن المنكدر لا ينام الليل يكثر البكاء على نفسه، فشق ذلك على أمه، فقالت لأخيه محمد بن المنكدر: إن الذي يصنع عمر يشقّ عليّ، فلو كلمته في ذلك. فاستعان عليه بأبي حازم، فقالا له: إن الذي تصنع يشق على أمك.

قال: فكيف أصنع؟ إن الليل إذا دخل علي هالني، فأستفتح القرآن وما تنقضي نهمتي فيه.

قالا: فالبكاء؟ قال: آية من كتاب الله أبكتني.

قالا: وما هي؟ قال: قوله عز وجل: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾(١) (٢).

قلت: تقدمت هذه الرواية بنحوها عن أخيه محمد بن المنكدر.

* * *

الربيع بن أبي راشد

أبو عبد الله الكوفي العابد، أخو جامع بن أبي راشد، كان قانتاً خاشعاً ذاكراً للآخرة، روى عن سعيد بن جبير. «الجرح والتعديل» و «تاريخ الإسلام» و «المنتظم».

قلت: ذكره ابن الجوزي في (وفيات ١٢١، وأيضاً ١٣٢!).

---

(١) الزمر: ٤٧.

(٢) «صفة الصفوة» (٢ / ١٤٥).

وذكره الذهبي في (وفيات ١٣٠ ـ ١٤٠).

روى ابن الجوزي بإسناده: عن خلف بن حوشب قال: قال لي الربيع بن أبي راشد: اقرأ عليّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾[1]، فقرأتها عليه، فبكى، ثم قال: والله لولا أن تكون بدعة لسحت ـ أو قال: لهمت ـ في الجبال[2].

وذكره عن أبي بكر بن أبي الدنيا بإسناده، عن خلف بن حوشب قال: كنت مع الربيع بن أبي راشد في الجبانة، فقرأ رجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ الآية، فقال الربيع: حال ذكر الموت بيني وبين كثير مما أريد من التجارة، ولو فارق ذكر الموت قلبي ساعة خشيت أن يَفْسُد علي قلبي، ولولا أن أُخالف مَنْ كان قبلي لكانت الجبانة مسكني إلى أن أموت[3].

تفسير الآية:

ونصها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾.

قال ابن سعدي: يقول تعالى: **﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب**

---

(١) الحج: ٥.

(٢) «المنتظم» (٤/ ٦٨٤).

(٣) «المنتظم» (٥/ ٢٥)، وانظر: «الحلية» (٥/ ٧٧).

من البعث﴾؛ أي: شك واشتباه وعدم علم بوقوعه، مع أن الواجب عليكم أن تصدقوا ربكم وتصدقوا رسله في ذٰلك، ولٰكن إذا أبيتم إلا الريب فهاكم دليلين عقليين تشاهدونهما، كل واحد منهما يدل دلالة قطعية على ما شككتم فيه، ويزيل عن قلوبكم الريب.

أحدهما: الاستدلال بابتداء خلق الإنسان، وأن الذي ابتدأه سيعيده، فقال فيه: ﴿**فإنا خلقناكم من تراب**﴾، وذٰلك بخلق أبي البشر آدم عليه السلام، ﴿**ثم من نطفة**﴾؛ أي: منيّ، وهٰذا ابتداء أول التخليق، ﴿**ثم من علقة**﴾؛ أي: تنقلب تلك النطفة بإذن الله دماً أحمر. ﴿**ثم من مضغة**﴾؛ أي: ينتقل الدم مضغة؛ أي: قطعة لحم بقدر ما يمضغ، وتلك المضغة تارة تكون ﴿**مخلقة**﴾؛ أي: مصور منها خلق الآدمي، ﴿**وغير مخلقة**﴾ تارة، بأن تقذفها الأرحام قبل تخليقها، ﴿**لنبين لكم**﴾ أصل نشأتكم، مع قدرته تعالى على تكميل خلقه في لحظة واحدة، ولٰكن ليبين لنا كمال حكمته وعظيم قدرته وسعة رحمته. ﴿**ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى**﴾، ونقر؛ أي: نبقي في الأرحام من الحمل ـ الذي لم تقذفه الأرحام ـ ما نشاء إبقاءه إلى أجل مسمى، وهو مدة الحمل. ﴿**ثم نخرجكم**﴾ من بطون أمهاتكم ﴿**طفلاً**﴾، لا تعلمون شيئاً وليس لكم قدرة، وسخرنا لكم الأمهات، وأجرينا لكم في ثديها الرزق، ثم تنقلون طوراً بعد طور حتى تبلغوا أشدكم، وهو كمال القوة والعقل. ﴿**ومنكم من يتوفى**﴾ من قبل أن يبلغ سن الرشد، ومنكم من يتجاوزه فيرد إلى أرذل العمر؛ أي: أخسه وأرذله، وهو سن الهرم والتخريف، الذي به يزول العقل ويضمحل، كما زالت باقي القوة وضعفت. ﴿**لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً**﴾؛ أي: لأجل أن لا يعلم هٰذا المعمر شيئاً مما كان يعلمه قبل ذٰلك،

وذٰلك لضعف عقله، فقوة الآدمي محفوفة بضَعفين؛ ضعف الطفولة ونقصها، وضعف الهرم ونقصه، كما قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾[1].

والدليل الثاني: إحياء الأرض بعد موتها، فقال الله فيه: **﴿وترى الأرض هامدة﴾**؛ أي: خاشعة مغبرة لا نبات فيها ولا خضرة، **﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت﴾**؛ أي: تحركت بالنبات، **﴿وربت﴾**؛ أي: ارتفعت بعد خشوعها، وذٰلك لزيادة نباتها، **﴿وأنبتت من كل زوج﴾**؛ أي: صنف من أصناف النبات، **﴿بهيج﴾**؛ أي: يبهج الناظرين ويسر المتأملين.

* * *

سليمان التَّيْمي

ابن طَرْخان، الإمام شيخ الإسلام، أبو المُعْتَمِر التيمي البصري. روى عن أنس بن مالك، وكان مقدماً في العلم والعمل. (ت ١٤٣). «السِّيَر».

عن معتمر قال: صلى بنا أبي، فقرأ سورة ﴿قٓ﴾ في صلاة الفجر، فلما انتهى إلى هٰذه الآية: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾[2] غلبته عَبرته، فلم يستطع أن يجوز، فركع[3].

وعن سليمان التيمي: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾[4]؛ قال: قيوداً والله

---

(١) الروم: ٥٤.
(٢) قٓ: ١٩.
(٣) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ٨٥).
(٤) المزمل: ١٢.

ثقالاً لا تُفَكّ أبداً، ثم بكى[1].

* * *

عبد العزيز بن سلمان

عبد العزيز بن سلمان، أبو محمد، واعظ جليل من البصرة. أخباره في «الحلية» و «صفة الصفوة».

عن محمد بن عبد العزيز بن سلمان قال: قرأ رجل عند أبي: ﴿وَٱلطُّورِ * وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾، حتى انتهى إلى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ * مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾[2]. قال: فبكى القوم حتى ما كنت أسمع قراءة القارىء[3].

تفسير الآيات:

قال ابن سعدي: يقسم تعالى بهذه الأمور العظيمة المشتملة على الحكم الجليلة على البعث والجزاء للمتقين والمكذبين، فأقسم بالطور؛ وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وأوحى إليه ما أوحى من الأحكام، وفي ذلك من المنة عليه وعلى أمته ما هو من آيات الله العظيمة، ونعمه التي لا يقدر العباد لها على عد ولا ثمن.

﴿وكتاب مسطور﴾؛ يحتمل أن المراد به اللوح المحفوظ الذي كتب الله به كل شيء، ويحتمل أن المراد به القرآن الكريم الذي هو أفضل الكتب، أنزله الله محتوياً على نبأ الأولين والآخرين، وعلوم

---

(١) «الدر المنثور» (٨/ ٣١٩).

(٢) الطور: ٧ و ٨.

(٣) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ٩٣).

السابقين واللاحقين.

وقوله: ﴿**في رق**﴾؛ أي: ورق، ﴿**منشور**﴾؛ أي: مكتوب مسطور، ظاهر غير خفي، لا تخفى حاله على كل عاقل بصير.

﴿**والبيت المعمور**﴾؛ وهو البيت الذي فوق السماء السابعة، المعمور مدى الأوقات بالملائكة الكرام، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك يتعبدون فيه لربهم، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، وقيل: إن البيت المعمور هو بيت الله الحرام، والمعمور بالطائفين والمصلين والذاكرين كل وقت، وبالوفود إليه بالحج والعمرة، كما أقسم الله به في قوله: ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾. وحقيق ببيت هو أفضل بيوت الأرض، الذي يقصده الناس بالحج والعمرة، أحد أركان الإسلام ومبانيه العظام التي لا يتم إلا بها، وهو الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، وجعله الله مثابة للناس وأمناً؛ أن يقسم الله به ويبين من عظمته ما هو اللائق به وبحرمته.

﴿**والسقف المرفوع**﴾؛ أي: السماء التي جعلها الله سقفاً للمخلوقات، وبناء للأرض تستمد منه أنوارها، ويقتدى بعلاماتها ومنارها، وينزل الله منها المطر والرحمة وأنواع الرزق.

﴿**والبحر المسجور**﴾؛ أي: المملوء ماء، قد سجره الله ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض، مع أن مقتضى الطبيعة أن يغمر وجه الأرض، ولكن حكمة الله اقتضت أن يمنعه عن الجريان والفيضان، ليعيش من على وجه الأرض من أنواع الحيوان، وقيل: إن المراد بالمسجور: الموقد الذي يوقد ناراً يوم القيامة، ناراً تلظى، ممتلئاً على سعته من أصناف العذاب.

هذه الأشياء التي أقسم الله بها مما يدل على أنها من آيات الله وأدلة توحيده وبراهين قدرته وبعثه الأموات، ولهٰذا قال: ﴿**إن عذاب ربك لواقع**﴾؛ أي: لا بد أن يقع، ولا يخلف الله وعده وقيله.

﴿**ما له من دافع**﴾ يدفعه، ولا مانع يمنعه، لأن قدرة الله لا يغالبها مغالب ولا يفوتها هارب. اهـ.

* * *

أبو حنيفة

الإمام فقيه الملة عالم العراق، أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى الكوفي، مولى بني تيم الله بن ثعلبة، ويقال: إنه من أبناء الفرس. ولد سنة ثمانين في حياة صغار الصحابة، ورأى أنس بن مالك لما قدم عليهم الكوفة، ولم يثبت له حرف عن أحد منهم، وروى عن عطاء بن أبي رباح، وارتحل في ذلك، وأما الفقه والتدقيق في الرأي وغوامضه فإليه المنتهى، والناس عليه عيال في ذٰلك، توفي شهيداً مسقياً في سنة (١٥٠) «السِّيَر».

روى محمد بن سماعة، عن محمد بن الحسن، عن القاسم بن معن؛ أن أبا حنيفة قام ليلة يُرَدِّد قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾[١]، ويبكي ويتضرع إلى الفجر[٢].

تفسير الآية:

قال القنوجي في «فتح البيان»: ﴿**بل الساعة موعدهم**﴾؛ أي:

---

(١) القمر: ٤٦.

(٢) «تاريخ الإسلام» (١٠/ ٣٠٩ـ ٣١٠).

موعد عذابهم الأخروي بعد بدر، وليس هٰذا العذاب الكائن في الدنيا بالقتل والأسر والقهر هو تمام ما وعدوا به من العذاب، وإنما هو مقدمة من مقدماته وطليعة من طلائعه، ولهٰذا قال: ﴿**والساعة أدهى**﴾؛ أي: وعذاب الساعة أعظم في الضر وأفظع وأشد من موقف بدر، يقال: دهاه أمر كذا؛ أي: أصابه دهواً ودهياً، والداهية: الأمر المنكر الذي لا يهتدى لدوائه، مأخوذ من الدهاء؛ وهو النُّكْر والفظاعة، وإظهار الساعة في مقام إضمارها لزيادة تهويلها[1].

﴿**وأمر**﴾؛ أي: أشد مرارة من عذاب الدنيا.

* * *

سفيان الثوري

شيخ الإسلام، إمام الحفاظ، سيد العلماء العاملين في زمانه، أبو عبد الله الثوري الكوفي، المجتهد، مصنف كتاب «الجامع». (ت ١٦١). «السِّيَر».

عن خالد بن الصقر السدوسي قال: كان أبي خاصاً بسفيان الثوري، قال أبي: فاستأذنت على سفيان في نحر الظهر[2]، فأذنت لي امرأة، فدخلت عليه وهو يقول: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾[3]، ثم يقول: بلى يا رب، بلى يا رب، وينتحب وينظر إلى سقف البيت ودموعه تسيل.

---

(١) يعني بإظهار الساعة: قوله تعالى: ﴿**والساعة أدهى وأمر**﴾، وبإضمارها: وهي أدهى وأمر.

(٢) هو حين تبلغ الشمس منتهاها من الارتفاع، كأنها وصَلَتْ إلى النحر، وهو أعلى الصدر. «لسان».

(٣) الزخرف: ٨٠. وتمامها: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

فمكثت جالساً كم شاء الله، ثم أقبل إلي فجلس معي فقال: مذ كم أنت ههنا؟ ما شعرت بمكانك![1].

تفسير الآية:

قال ابن جرير: قوله: ﴿**أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم**﴾؛ يقول: أم يظن هؤلاء المشركون بالله أنا لا نسمع ما أخفوا عن الناس من منطقهم وتشاوروا بينهم وتناجوا به دون غيرهم فلا نعاقبهم عليه لخفائه علينا.

وقوله: ﴿**بلى ورسلنا لديهم يكتبون**﴾؛ يقول تعالى ذكره: بل نحن نعلم ما تناجوا به بينهم وأخفوه عن الناس من سر كلامهم، وحفظتنا لديهم؛ يعني: عندهم، يكتبون ما نطقوا به من منطق، وتكلموا به من كلامهم.

وعن أبي يزيد محمد بن حسان قال: سمعت عبد الرحمٰن بن مهدي يقول: ما عاشرت في الناس رجلاً أرق من سفيان، وكنت أرمقه الليلة بعد الليلة، فما كان ينام إلا أول الليل، ثم ينتفض فزعاً مرعوباً ينادي: النار النار، شغلني ذكر النار عن النوم والشهوات.

ثم يتوضأ ويقول على إثر وضوئه: اللهم إنك عالم بحاجتي غير معلم، وما أطلب إلا فكاك رقبتي من النار، إلهي، إن الجزع قد أرقني وذٰلك من نعمك السابغة علي، إلهي، لو كان لي عذر في التخلي ما أقمت مع الناس طرفة عين. ثم يقبل على صلاته.

وكان البكاء يمنعه من القراءة حتى إن كنت لا أستطيع سماع

---

(١) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ٢٩٥).

قراءته من كثرة بكائه، وما كنت أقدر أن أنظر إليه استحياء وهيبة منه[1].

* * *

داود الطائي

الإمام الفقيه القدوة الزاهد، أبو سليمان داود بن نُصَيْر الطائي الكوفي، أحد الأولياء. (ت ١٦٢ أو ١٦٥). «السِّيَر».

عن أم سعيد بن علقمة ـ وكان سعيد من نساك النخع، وكانت أمه طائية ـ قالت: كان بيننا وبين داود الطائي جدار قصير، فكنت أسمع حنينه عامة الليل لا يهدأ، قالت: ولربما سمعته في جوف الليل يقول: اللهم همك عطل علي الهموم، وحال بيني وبين السهاد، وشوقي إلى النظر إليك منع مني اللذات والشهوات، فأنا في سجنك أيها الكريم مطلوب.

قالت: ولربما ترنم في السحر بشيء من القرآن فأرى أن جميع نعيم الدنيا جمع في ترنمه تلك الساعة.

قالت: وكان يكون في الدار وحده، وكان لا يصبح (تعني: لا يسرج)[2].

* * *

سعيد بن عبد العزيز

ابن أبي يحيى، الإمام القدوة، مفتي دمشق، أبو محمد التَّنُوخي

---

(١) «صفة الصفوة» (٣/ ١٤٩).

(٢) «الحلية» (٧/ ٣٥٦ ـ ٣٥٧).

الدمشقي، ويقال: أبو عبد العزيز. قرأ القرآن على ابن عامر ويزيد بن أبي مالك. تلا عليه الوليد بن مسلم وأبو مُسْهِر. (ت ١٦٧). «السِّيَر».

قال أبو زرعة: حدثني أبو النضر إسحٰق بن إبراهيم قال: كنت أسمع وقع دموع سعيد بن عبد العزيز على الحصير في الصلاة[(١)].

وعن أحمد بن أبي الحواري، حدثني أبو عبد الرحمٰن الأسَدي قال: قلت لسعيد بن عبد العزيز: ما هٰذا البكاء الذي يعرض لك في الصلاة؟ فقال: يا بن أخي، وما سؤالك عن ذٰلك؟ قلت: لعل الله أن ينفعني به؟ فقال: ما قمت إلى صلاة إلا مثلت لي جهنم[(٢)].

* * *

الحسن بن خليل بن مرة

ذكره ابن الجوزي في «المنتظم» في (وفيات ١٦٩)، وقال: كان كثير التعبد طويل البكاء. وذكره في «صفة الصفوة».

عن محمد بن رمح قال: أتيت الحسن بن الخليل لأسمع منه شيئاً، فإذا هو يقرأ سورة ﴿قٓ﴾ ويبكي[(٣)].

* * *

الفضيل بن عِيَاض

ابن مسعود بن بشر، الأستاذ الإمام القدوة الثبت شيخ الإسلام، أبو علي التميمي اليربوعي الخراساني الزاهد. كان إماماً ثقة حجة زاهداً

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٣٤).

(٢) المصدر السابق.

(٣) «صفة الصفوة» (٤/ ٣٢٢).

عابداً نبيهاً صمدانياً كبير الشأن. (ت ١٨٧). «السِّيَر» و «تاريخ الإسلام».

عن إبراهيم بن الأشعث قال: ما رأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله أو ذكر عنده أو سمع القرآن ظهر به من الخوف والحزن، وفاضت عيناه وبكى حتى يرحمه من بحضرته[١].

وعن الصلت بن حكيم قال: قرأ لنا قارىء بمكة: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ﴾، ونحن على باب فضيل، فجعلنا نسمع نشيجه من العلو[٢].

وعن الحسين بن منصور قال: أخرج الفضيل بن عياض رأسه من خوخة فقال: منصور، عن مجاهد: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾[٣]، ثم أدخل رأسه فانتحب، ثم أخرج رأسه فقال: هو اللهب المتقطع، ولم يستطع أن يجيز الحديث[٤].

تفسير الآية:

قال ابن كثير: المعنى؛ لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا، ولهٰذا قال: ﴿**فلا تنتصران. فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾.

وروى ابن جرير في «تفسيره»: عن قتادة: ﴿**يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس**﴾؛ قال: يخوفهم بالنار وبالنحاس.

---

(١) «الحلية» (٨/ ٨٤).

(٢) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (رقم ٨٦).

(٣) الرحمٰن: ٣٥.

(٤) «التخويف من النار» (ص ٨٦ ـ ٨٧).

وعن مهران بن عمرو الأسدي قال: سمعت الفضيل بن عياض عشية عرفة بالموقف وقد حال بينه وبين الدعاء البكاءُ يقول: واسوأتاه! وافضيحتاه! وإن عفوت.

وعن أحمد بن سهل قال: قدم علينا سعد بن زنبور فأتيناه، فحدثنا قال: كنا على باب الفضيل بن عياض فاستأذنا عليه، فلم يؤذن لنا، فقيل لنا: إنه لا يخرج إليكم أو يسمع القرآن. قال: وكان معنا رجل مؤذن وكان صيّتاً، فقلنا له: اقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، [فقرأها] ورفع بها صوته، فأشرف علينا الفضيل وقد بكى حتى بل لحيته بالدموع ومعه خرقة ينشف بها الدموع من عينيه، وأنشأ يقول:

بلغتُ الثمانين أو جُزْتُها ... فماذا أُؤمل أو أنتظرْ

أتى لي ثمانون من مولدي ... وبعد الثمانين ما يُنْتَظَرْ

علَّتْني السنون فأبلينني ... .

قال: ثم خنقته العبرة، وكان معنا علي بن خشرم فأتمه لنا فقال:

علَّتْني السنون فأبلينني ... فَرَقَّتْ عِظامي وكَلَّ البَصَرْ[1]

قلت: تقدم تفسير سورة «التكاثر»[2].

ويروى أنه قرأ قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾[3]، فبكى وقال: والله ما طمعوا في الخروج، وإن الأيدي لموثقة، والأرجل لمقيدة، وكلما رفعهم لهيبها يصيرون في أعلاها،

---

(١) «صفة الصفوة» (٢ / ٢٣٩).
(٢) انظر: (صفحة ٩٦ - ٩٨).
(٣) السجدة: ٢٠.

فتردهم الزبانية بمقامع من حديد إلى أسفلها[1].

وعن محمد بن ناجية قال: صليت خلف الفضيل فقرأ ﴿**الحاقة**﴾ في الصبح، فلما بلغ إلى قوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾[2] غلبه البكاء، فسقط ابنه علي مغشياً عليه[3].

تفسير الآية:

قال ابن كثير: ﴿**خذوه فغلوه. ثم الجحيم صلوه**﴾؛ أي: يأمر الزبانية أن تأخذه عنفاً من المحشر فتغله؛ أي: تضع الأغلال في عنقه، ثم تورده إلى جهنم فتصليه إياها؛ أي: تغمره فيها.

***

سُلَيم بن عيسى

ابن سليم بن عامر، شيخ القراء، أبو عيسى وأبو محمد الحنفي، مولاهم الكوفي، صاحب حمزة الزيات وأخص تلامذته به، وأحذقهم بالقراءة وأقومهم بالحرف، وهو خلفه في الإقراء. (ت ١٨٨ أو ١٨٩). «السِّيَر» و «معرفة القراء الكبار».

عن حسين بن محمد بن فهم: حدثني خلف بن هشام قال: أتيت سليم بن عيسى لأقرأ عليه، قال: وكان بين يديه قوم فأظنهم سبقوني، فلما جلست قال لي: من أنت؟ قلت: خلف، فقال لي: بلغني أنك تريد الترفع في القراءة، فلست آخذ عليك شيئاً. قال: فكنت أحضر المجلس ولا يأخذ علي شيئاً.

---

(١) «الزهر الفائح» (ص ٩٢).

(٢) الحاقة: ٣٠.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٤٤).

قال: فبكرت يوماً في الغَلَس، وخرج فقال: مَن ههنا يتقدم يقرأ؟ فتقدمت فجلست بين يديه. قال: فاستفتحت سورة «يوسف»، وهي أشد القرآن إعراباً، فقال لي: من أنت؟ فما سمعت أقرأ منك! فقلت: أنا خلف، فقال لي: فعلتها! ما يحل لي أن أمنعك، اقرأ.

قال: فكنت أقرأ عليه، حتى قرأت يوماً ﴿حمٓ﴾ المؤمن، فلما بلغت إلى قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[1] بكى بكاء شديداً، ثم قال لي: يا خلف، أما ترى ما أعظم حق المؤمن! تراه نائماً على فراشه والملائكة يستغفرون له[2].

تفسير الآية:

قوله تعالى: ﴿**الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا**﴾ الآية، قال القاسمي: وفائدة التصريح بإيمانهم مع جلائه هو إظهار فضيلة الإيمان وإبراز شرف أهله، والإشعار بعلة دعائهم للمؤمنين، حسبما يصرح به قوله تعالى: ﴿**ويستغفرون للذين آمنوا**﴾، فإن المشاركة في الإيمان أقوى المناسبات وأتمها، وأدعى الدواعي إلى النصح والشفقة.

قال: وفي نظم استغفارهم لهم في سلك وظائفهم المفروضة عليهم؛ من تسبيحهم وتحميدهم وإيمانهم، إيذان بكمال اعتنائهم به، وإشعار بوقوعه عند الله تعالى في موقع القبول.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار قال: ثنا معمر بن بشير قال: ثنا ابن المبارك، عن معمر، عن قتادة، عن مُطَرِّف قال: وجدنا أنصح

---

(١) غافر: ٧.

(٢) «تاريخ بغداد» (٨/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤).

العباد للعباد الملائكة، وأغش العباد للعباد الشياطين، وتلا: ﴿**الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم**﴾ الآية.

* * *

هارون الرشيد

الخليفة أبو جعفر هارون بن المهدي محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي العباسي، استُخْلِف بعهد معقود له بعد الهادي من أبيهما المهدي، وكان من أنبل الخلفاء وأحشم الملوك، ذا حج وجهاد وغزو وشجاعة ورأي وفصاحة وعلم وبصر بأعباء الخلافة، وله فتوحات ومواقف مشهودة، منها فتح مدينة هرقلة، ومات غازياً بخراسان (سنة ١٩٣). «السِّيَر».

قال عبيد الله القواريري: لما لقي الرشيد فضيلاً قال له: يا حسن الوجه، أنت المسؤول عن هٰذه الأمة، ثنا ليث، عن مجاهد: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾(١)؛ قال: الوُصَل التي كانت بينهم في الدنيا. فجعل هارون يبكي ويشهق(٢).

تفسير الآية:

قال ابن جرير: الصواب من القول في تأويل قوله: ﴿**وتقطعت بهم الأسباب**﴾؛ أن يقال: أن الله تعالى ذكره أخبر أن الذين ظلموا أنفسهم من أهل الكفر الذين ماتوا وهم كفار؛ يتبرأ عند معاينتهم عذاب

---

(١) البقرة: ١٦٦.

(٢) «تاريخ الإسلام» (١٣ / ٤٢٨).

الله المتبوع من التابع وتتقطع بهم الأسباب، وقد أخبر تعالى ذكره في كتابه أن بعضهم يلعن بعضاً، وأخبر عن الشيطان أنه يقول لأوليائه: ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾(١)، وأخبر تعالى ذكره أن الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين، وأن الكافرين لا ينصر يومئذ بعضهم بعضاً، فقال تعالى ذكره: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾(٢)، وأن الرجل منهم لا ينفعه نسيبه ولا ذو رحمه وإن كان نسيبه لله ولياً، فقال تعالى ذكره في ذلك: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾(٣)، وأخبر تعالى ذكره أن أعمالهم تصير عليهم حسرات، وكل هٰذه المعاني أسباب يُتسبب في الدنيا بها إلى مطالب، فقطع الله منافعها في الآخرة عن الكافرين به، لأنها كانت بخلاف طاعته ورضاه، فهي منقطعة بأهلها، فلا خلال بعضهم بعضاً ينفعهم عند ورودهم على ربهم، ولا عبادتهم أندادهم، ولا طاعتهم شياطينهم، ولا دافعت عنهم أرحام فنصرتهم من انتقام الله منهم، ولا أغنت عنهم أعمالهم، بل صارت عليهم حسرات، فكل أسباب الكفار منقطعة.

* * *

الفَلّاس

عمرو بن علي بن بحر بن كَنِيْز الحافظ المُجَوِّد الناقد، أبو حفص

---

(١) إبراهيم: ٢٢.

(٢) الصافات: ٢٤ و٢٥.

(٣) التوبة: ١١٤.

الباهلي البصري الصيرفي الفلاّس، حفيد المحدث بحر بن كَنِيْز السَّقَّاء. قال أبو زُرعة: ذاك من فرسان الحديث، لم نر بالبصرة أحفظ منه ومن علي بن المديني والشّاذَكوني. (ت ٢٤٩). «السِّيَر».

قال ابن أبي الدنيا: وحدثني أبو حفص الصيرفي؛ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا تلا: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[(١)]، قال: ونحن نقسم بالله جهد أيماننا ليبعثن الله من يموت، أتراك تجمع بين القسمين في دار واحدة، ثم بكى أبو حفص بكاء شديداً[(٢)].

* * *

بكّار بن قُتَيْبَة

القاضي أبو بكرة الثقفي البكراوي البصري الفقيه الحنفي، قاضي ديار مصر، من ذرية أبي بكرة، كان من القضاة العادلين، عظيم الحرمة كبير الشأن، قال ابن خلكان: كان بكار بكاءً تالياً للقرآن صالحاً ديِّناً. (ت ٢٧٠). «تاريخ الإسلام» و «طبقات الأولياء».

عن أحمد بن سهل الهروي قال: كنت ساكناً في جوار بكار بن قتيبة، فانصرفت بعد العشاء فإذا هو يقرأ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ الآية[(٣)]. ثم نزلت في السحر فإذا هو يقرؤها ويبكي، فعلمت أنه كان يقرؤها من أول الليل[(٤)].

---

(١) النحل: ٣٨.

(٢) «التخويف من النار» (ص ٢١٠).

(٣) صَ: ٢٦.

(٤) «تاريخ الإسلام» (٢٠/ ٧١).

قلت: وكان رحمه الله قاضياً ـ كما تقدم ـ، فلذٰلك ردد على نفسه هٰذه الآية متدبراً لها باكياً خشية أن يميل به الهوى عن الحق.

وحق لكل من يحكم بين الناس أن تكون هٰذه الآية ورد قلبه ليل نهار، حصناً له من ظلم الناس، ولو كان حاكماً بينهم بقضايا معدودة، ولو بقضية واحدة.

ويا ليت أن أهل العلم والمشايخ فضلاً عن غيرهم جعلوا هٰذه الآية نصب أعينهم، فقد خاطب الله تعالى بها من هو خير منهم، فهم بالخوف من الجَوْر أحرى، وبالخشية من نزغات الهوى أولى.

وكثيراً ما رأينا وسمعنا من يحكم على غائب بمجرد سماعه من خصمه دون أن يسمع منه، هٰذا وهم يوقعون عن رب العالمين! ويفتون الناس بوجوب استماع حجة الطرف الآخر!!

ثم انظر إلى ذٰلك العالم أو الشيخ الذي يأتيه زيد يختصم إليه من عمرو في قضية ما، فيقول له: احلف بالله على صدق ادعائك على عمرو!!! ثم يحكم على عمرو دون أن يراجعه أو يسأله.

صار الحكم عند كثير من الناس في هٰذا الزمان يعتمد على قاعدة: اليمين على من ادعى.

هٰذه قاعدة الهوى، أما قاعدة الحق فهي: «البَيِّنَةُ عَلَى المُدَّعِي وَاليَمِينُ عَلَى المُدَّعَى عَلَيْهِ».

ولكن هو الهوى، قاتل الله الهوى.

وأعجب من ذلك أنه إذا حُكم على هٰذا بنفس الطريقة جُنّ جنونه، واشتكى ظلم الظالمين، وهو ـ والله ـ من أظلمهم.

تفسير الآية:

قال ابن سعدي: ﴿**يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض**﴾ تنفذ فيها القضايا الدينية والدنيوية، ﴿**فاحكم بين الناس بالحق**﴾؛ أي: العدل. وهٰذا لا يتمكن منه إلا بعلم بالواجب، وعلم بالواقع، وقدرة على تنفيذ الحق، ﴿**ولا تتبع الهوى**﴾؛ فتميل مع أحد لقرابة أو صداقة أو محبة أو بغض للآخر، ﴿**فيضلك**﴾ الهوى ﴿**عن سبيل الله**﴾، ويخرجك عن الصراط المستقيم.

* * *

يوسف بن أبي الساج

قال ابن الجوزي[1]: وفي هٰذه السنة (سنة إحدى وسبعين ومئتين) وثب يوسف بن أبي الساج ـ وكان والي مكة ـ على غلام الطائي يقال له: بدر، خرج على الحاج فقيده، فحارب ابن أبي الساج أصحاب بدر، وأعانهم الحاج حتى استنقذوا غلام الطائي، وأسروا ابن أبي الساج فقيدوه، وحمل إلى بغداد، وكانت الحرب بينهم على أبواب المسجد الحرام.

قال: أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد الباقي قال: أنبأنا أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي، عن أبيه قال: حدثني أبو السري عمر بن محمد القاري قال: حدثني أبو بكر الآدمي قال: لما أدخل مؤنس أبا القاسم بن أبي الساج أسيراً خرجت إلى تلقيته على فراسخ ودخلت بغداد معه، فقال لي لما قربنا: إذا كان غداً فإني سأُركب ابن أبي الساج

---

(١) «المنتظم» (٧/ ١٩٧ ـ ١٩٩).

وأُشهره، فاركب بين يديه واقرأ. فقلت: السمع والطاعة.

فلما كان من الغد شهر ابن أبي الساج ببرنس، فبدأت فقرأت: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1]، وأتبعتها بكل ما في القرآن من هٰذا الجنس. قال: وحانت مني التفاتة، فرأيت ابن أبي الساج يبكي، ومضى ذٰلك اليوم.

فلما كان بعد أيام رضي عنه السلطان بشفاعة مؤنس، فأطلقه إلى داره، [فبينما] كنت يوماً بحضرة مؤنس أقرأ إذ استدعاني وقال لي: قد طلبك اليوم ابن أبي الساج فامض إليه. فقلت له: أيها الأستاذ، الله الله فيّ، لعله وجد في نفسه من قراءتي ذٰلك اليوم؟ فضحك وقال: امض إليه. فمضيت إليه، فرفعني وأجلسني وقال: أحب أن تقرأ تلك الآيات التي قرأتها بين يدي يوم كذا. فقلت: أيها الأمير، تلك حالة اقتضت ذٰلك، وليس مثلك بآخذ مثلي عليها، وقد كشفها الله الآن، ولٰكن اقرأ لك غيرها، قال: لا، إلا تلك، فإنه تداخلني لها خشوع وخوف أحب أن أكسر بها نفسي، فرَدِّد سماعها علي.

قال: فاستفتحت فقرأتها له، فما زال يبكي وينتحب إلى أن قطعت القراءة، ثم قال: تقدم إلي. قال: فخفته والله أن يبطش بي، ثم قلت في نفسي: هٰذا محال، فتقدمت، فأخرج من تحت مصلاه دنانير كثيرة وقال: افتح فاك. ففتحته بكل ما استطعته، فما زال يملؤه حتى لم يبق في فمي موضع، ثم قال للغلام: هات. فجاء بكيس فيه ألفا درهم فجعلها في كمي، ثم خرجت فقُدِّمَتْ إليّ بغلة فارهة مسرجة، فحُملت عليها، وأصحبني ثياباً، وقال: إذا شئت فعد إلينا،

---

(١) هود: ١٠٢.

ولا تنقطع عنا ما دمنا مقيمين. فكنت أجيئه في كل أسبوع أقرأ في داره، فيعطيني في كل شهر مائة دينار، إلى أن خرج من مدينة السلام.

وقال في موضع آخر[1]: ومن الحوادث في سنة عشر وثلاث مئة: أن يوسف بن أبي الساج أُطلق في المحرم، وحمل إليه المال، وخلع عليه، وقرر أن يحمل في كل سنة خمسمائة ألف دينار من أعمال ضمنت إليه، فبعث إلى مؤنس يطلب منه إنفاذ أبي بكر بن الآدمي القارىء، فخاف أبو بكر لأنه كان قد قرأ بين يديه يوم شُهِّر: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾[2].

فقال: هاتوا كرسياً لأبي بكر. فجلس فقال: اقرأ. فقرأ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾[3]، فقال: لا أريد هٰذا، بل أريد لتقرأ ما قرأته بين يدي حين شُهِّرْتُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾. فقرأ. فبكى، وقال: هٰذه الآية كانت سبب توبتي من كل محظور، ولو أمكنني ترك خدمة السلطان لتركت. وأمر له بمال.

قال ابن الجوزي: وقد ذكرنا أنه شُهِّر في سنة إحدى وسبعين ومائتين، وحينئذ قرأ بين يديه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾، وذٰلك في خلافة المعتمد، وفي هٰذه السنة استزاره فأكرمه وذٰلك في خلافة المقتدر.

تفسير الآية:

قال ابن كثير: يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة

(١) «المنتظم» (٨/ ٣٥).
(٢) هود: ١٠٢.
(٣) يوسف: ٥٤.

المكذبة لرسلنا، كذٰلك نفعل بأشباههم. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿**إن أخذه أليم شديد**﴾؛ أي: موجع فظيع قاصم، لا يطاق ألمه، ولا تقاوم شدته، عياذاً بالله منه.

***

أبو الحسن الكانشي

هو حسن بن محمد بن حسن الخولاني، كان رجلاً صالحاً فاضلاً فقيهاً مشهوراً بالعلم، متعبداً مجتهداً ورعاً خائفاً رقيق القلب، وكان يحسن العربية والنحو واللغة وشعر العرب، أجمع على فضائله المؤالف والمخالف، ورُحِل إليه من الآفاق. (ت ٣٤٧). «ترتيب المدارك».

قال أبو بكر بن خلف: أُخبرت أنه كان لا يهدأ ولا ينام الليل أجمع(!)، يقرأ القرآن ويبكي، ذا خوف وإشفاق[(١)].

قال أبو الحسن القابسي: إن بعض سكان القصر الذي كان يسكن فيه الكانشي قام فسمعه يقرأ في: ﴿**سبحان**﴾. فلما كان آخر الليل وجده قد ختم، ثم أخذ في النياحة والبكاء، ثم قال:

أَتُراكَ بَعْد الدَّرْسِ للقرآنِ تَحْرِقُنِي   يا ليتني أُدرجتُ قبلَ الذنبِ في الكَفَنِ

ثم عاد إلى النياحة والبكاء حتى طلع الفجر، ثم أقبل يقول: وعزتك وجلالك ما عصيتك استخفافاً بحقك ولا جحوداً لربوبيتك، لكني حضرني جهلي، وغاب عني علمي، واستفزني عدوي، وإني عليها يا إلٰهي لنادم.

---

(١) «ترتيب المدارك» (٢ / ٣٦٨).

قال القابسي: ما رأيت أخير من أبي الحسن، وكان أكثر ما يقطع ليلته بتلاوة القرآن والنياحة والبكاء[1].

❊ ❊ ❊

جعفر بن حرب

ذكره ابن الجوزي في «المنتظم» و «صفة الصفوة». (ت ٣٤٩).

قال ابن الجوزي[2]: أنبأنا محمد بن أبي طاهر البزاز، عن أبي القاسم علي بن المحسن، عن أبيه؛ أن جعفر بن حرب كان يتقلد الأعمال الكبار للسلطان، وكانت نعمته تقارب نعمة الوزارة، فاجتاز يوماً راكباً في موكب له عظيم، ونعمته على غاية الوفور، ومنزلته بحالها في نهاية الجلال، فسمع رجلاً يقرأ: ﴿ ۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾[3]، فصاح: اللهم بلى. يكررها دفعات، وبكى.

ثم نزل عن دابته ونزع ثيابه، ودخل إلى دجلة واستتر بالماء، ولم يخرج حتى فرق جميع ماله في المظالم التي كانت عليه وردّها، وتصدّق بالباقي.

فاجتاز رجل فرآه في الماء قائماً وسمع بخبره، فوهب له قميصاً ومئزراً فاستتر بهما، وخرج وانقطع إلى العلم والعبادة حتى مات (!!).

---

(١) «ترتيب المدارك» (٢ / ٣٦٨).

(٢) «المنتظم» (٨ / ٣٠٠).

(٣) الحديد: ١٦.

قلت: تقدم تفسير الآية[1].

* * *

صاحب الأندلس

الملك الملقب بأمير المؤمنين، الناصر لدين الله، أبو المُطَرِّف عبد الرحمٰن بن محمد المرواني الأندلسي. باني مدينة الزهراء، والذي دامت دولته خمسين سنة، صاحب الفتوحات الكثيرة، والغزوات المشهورة. (ت ٣٥٠). «السِّيَر».

قال الإمام الذهبي في «تاريخ الإسلام»[2]: ابتنى مدينة الزهراء، وقسم الخراج أثلاثاً؛ ثلثاً للجند، وثلثاً يدخره في النوائب، وثلثاً للنفقة في الزهراء، فجاءت من أحسن مدينة على وجه الأرض، واتخذ لسطح العلية الصغرى التي على الصرح قراميد ذهب وفضة، وأنفق عليها أموالاً هائلة، وجعل سقفها صفراء فاقعة إلى بيضاء ناصعة تسلب الأبصار بلمعانها، وجلس فيها مسروراً فرحاً.

فدخل عليه القاضي أبو الحكم منذر بن سعيد البلوطي رحمه الله حزيناً، فقال: هل رأيت ملكاً قبلي فعل مثل هٰذا؟

فبكى القاضي وقال: والله ما ظننت أن الشيطان يبلغ منك هٰذا مع ما آتاك الله من الفضل حتى أنزلك منازل الكافرين.

فاقشعر من قوله، وقال: وكيف أنزلني منازل الكافرين؟!

قال: أليس الله يقول: ﴿ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلۡنَا

---

(١) انظر: (صفحة ٧١ - ٧٢).

(٢) (٢٥ / ٤٤٣ ـ ٤٤٤).

﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾(1). وتلا الآية كلها.

فوجم عبد الرحمٰن ونكس رأسه ملياً ودموعه تسيل على لحيته خشوعاً لله، وقال: جزاك الله خيراً، فالذي قلته الحق. وقام يستغفر الله، وأمر بنقض السقف الذي للقبة.

تفسير الآية:

قال المراغي: بَيَّنَ حقارة الدنيا وخستها بقوله: ﴿**ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمٰن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون وزخرفاً**﴾؛ أي: ولولا أن يعتمد كثير من الجهلة أن إعطاءنا المال للكفار دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر ويرغبوا فيه، إذا رأوا سعة الرزق عندهم؛ لجعلنا لبيوتهم سقفاً من فضة، ومصاعد من فضة، وسرراً من فضة عليها يتكئون، وزينة في كل ما يُرتفق به من شؤون الحياة.

ثم بين أن هٰذه المتعة قصيرة الأمد سريعة الزوال، فهي متاع الحياة الفانية، فقال: ﴿**وإن كل ذٰلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين**﴾؛ أي: وما كل ذلك إلا متاع قصير زائل، والآخرة بما فيها من ضروب النعيم التي لا يحيط بها عَدٌّ ولا إحصاء أعدها الله لمن اتقى الشرك والمعاصي وعمل بطاعته وآثر الآخرة على الدنيا.

وكذٰلك لو أعطيت هٰذه النعم والسرر والأبواب المصنوعة من الذهب والفضة للمؤمنين، حتى ليصير الناس كلهم هٰكذا، لأخلت

---

(1) الزخرف: ٣٣. وتمامها مع الآيتين بعدها: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ * وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

بالمقصود من الإيمان، لأن الترف والنعيم يحجب العقول عن عالم الروحانيات والرقي العقلي، فقلّ من يتخلص من شرك هٰذه الآفات، فالشهوات والزينة والزخارف للعقول أشبه بالقاذورات للأجسام، والأجسام القذرة يحوم حولها الذباب، فيلقي فيها بيوضه لتُفْرخ في القروح والعيون، ويخرج ذباب يعيش من تلك القاذورات، وهٰكذا النفوس الضعيفة تعيش فيها النفوس المماثلة لها من عالم الشياطين وتلقي إليها بذور الفساد، فتزرع فيها، وتحصدها النفوس خزياً وعاراً في الدنيا والآخرة. اهـ.

* * *

منيفة بنت أبي طارق

ذكرها ابن الجوزي في «صفة الصفوة».

قال أبو سَيَّار: حدثني عامر بن مليك البحراني، عن أُمّه قالت: بتّ ذات ليلة عند منيفة ابنة أبي طارق، فما زادت على هذه الآية من أول الليل إلى آخره تردِّدها وتبكي: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١) (٢).

تفسير الآية:

قال المراغي: أي ومِن أين يتطرق إليكم الكفر [بالله]، والحال أن القرآن يتلى عليكم على لسان رسوله غضاً طرياً، وبين أظهركم رسول الله ﷺ ينبهكم ويعظكم، ويبين لكم ما أُنزل إليكم، ولكم في

---

(١) آل عمران: ١٠١.

(٢) «صفة الصفوة» (٤ / ٧٤).

سنته خير أسوة تُغَذّي إيمانكم، وتنير قلوبكم؟!

وقوله تعالى: ﴿**ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم**﴾؛ قال ابن كثير: أي ومع هذا، الاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية، والعدّة في مباعدة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد. اهـ.

انتهى الكتاب، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وكتب

محمد شومان

* * * * *

فهرس الآيات

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

فهرس الأعلام

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

فهرس المواضيع

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

التنضيد الإلكتروني والإخراج الفني : قسم الكمبيوتر في
دار الحسن للنشر والتوزيع
هاتف ٤٦٤٨٩٧٥ - فاكس ٤٦٤٨٩٧٥ - ص.ب ١٨٢٧٤٢ - عمان ١١١١٨ - الأردن